15 em Année No. 736

Lundi — 21 — 9 — 1947

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ٧٣٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ شوال سنة ١٣٦٦ — أول سبتمبر سنة ١٩٤٧ » السنة الخامسة عشرة

عود إلى الردود والنقـــود

للأســـتاذ عباس محمود العقاد

يرى الأستاذ إسماعيل مظهر مرة أخرى فى المقتطف أن ترجمة « أنيميزم » Animism بالاستحياء خطأ لأنها ترجمت فى بعض المعجمات العامة بالفكرة الروحانية .

والأستاذ مظهر يعلم ولا شك أننا لم نكن نعجز عن مراجعة المعجمات كما راجعها . ولكننا فضلنا كلمة الاستحياء لأن المعجمات لا تفسر المعانى الفلسفية ، ولأن كلمة الاستحياء أدل على المعنى المقصود من الفكرة الروحانية فى هذا المقام .

فالفكرة الروحانية تلتبس بالمذهب المعارض للفكرة المادية فى تفسير الطبيعة أو تفسير التاريخ ، وكلاهما لم تكن تخطر للهمجى على بال ، وإنما كان يؤله الظواهر الطبيعية لأنه كان ينظر إليها كما ينظر إلى الأحياء .

وليست ترجمة « أنيميزم » بالحياة خطأ من الوجهة اللفظية فضلا عن الوجهة المعنوية أو الفلسفية . لأن كلمة أنيما Anima هى أصل كلمة أنيال Animal ونحن لا نترجم هذه الكلمة بذوات الأرواح بل بالأحياء أو الحيوانات . ولو ترجمناها بذوات الأرواح لأخطأنا فى رأى الدينيين ورأى الماديين على السواء ، لأن الدينيين لا يقولون بالروح فى الحيوان ، والماديين لا يقولون بالروح على الإطلاق .

وليس بصحيح ما قاله الأستاذ مظهر من أن كلمة « أنيما » anima تعنى الروح فى أصل وضعها مستشهداً على ذلك باستخدامها بهذا المعنى فى كتب أرسطو وغيره .

وإنما الصحيح أن أصل معنى « أنيما » anima هو الهواء . ثم استعيرت لمعنى الحياة أو الروح لأن الأقدمين كانوا يربطون بين التنفس والحياة ، وهكذا نشأت كلمات الروح والنفس والنسمة فى اللغة العربية .

***

ويرى الأســـتاذ مظهر مرة أخرى أن كلمة بوليثيزم Polytheism لا تترجم إلا بكلمة الشرك ولا تصح ترجمتها بتعديد الآلهة .

والصحيح أن ترجمتها بالشرك هى الخطأ وأن ترجمتها بتعديد الآلهة هى الصواب .

لأن الشرك يقتضى الإيمان بإله واحد يعتبر الإيمان بإله غيره مشاركة له ملكه .

والذين عددوا الآلهة قبل التوحيد لم يجعلوا بعضها شريكا لبعض فى الملك ، بل ربما اتخذوا إلهاً للبحر وإلهاً للشمس وإلهاً للغاب ولا مشاركة بينها فى عمل من الأعمال !

ومن الخلط المعيب أن نقول أن الشرك يفيد معنى البوليثيزم

Polytheism لأن الذى يعتقد بإلهين إثنين مشرك ولايقال فيه إنه Polytheist وإنما يقال فيه إنه ديالست Dualist كما يعلم الأستاذ .

***

وخذلت المعجمات الأستاذ مظهر أكثر من مرة فى هذه المناقشة لأنه راح يعتمدعليها فى تفسير كلمة الديالكتيك Dialectic التى ترجمناها بالثنائية ويأبى الأستاذ مظهر إلا أن تترجم بالجدلية … ولا جدل هناك حيث استخدمت الكلمة فى مذهب هيجل أو مذهب كارل ماركس أو ما شاء الأستاذ مظهر من المذاهب الفلسفية .

فهيجل يقول بالفكرة ونقيضها فى الثنائية المثالية وكارل ماركس يقول كذلك بالشيء ونقيضه فى الثنائية المادية .

ومعنى « الاثنينية » ظاهر فى المذهبين بل فى كل اصطلاح يرجع إلى « الديالكت » حتى الديالوج الذى يجرى الآن على كل لسان …

وكل أولئك يوحى إلى الذهن أن أصل كلمة اللهجة والحوار ملحوظ فيه الكلام بين اثنين .

ومهما يكن من هذا أو ذاك فالثابت قطعاً بغير جدال أن الأثنينية مقصودة فى ديالكتيك هيجل وماركس، وأن الجدل غير مقصود فيهما إلا فى المعجمات العزيزة عند الأستاذ إسماعيل مظهر … والتى يوجد عندنا منها بحمد الله عدد لا يقل عن الموجود منها فى مكتبة الأستاذ العامرة أو مكتبة المقتطف الفيحاء .

وقال الأستاذ مظهر : « إن الذهاب إلى أن مذهب كارل ماركس هو الديالكتيك أمر لم يقل به غير الأستاذ العقاد على ما أذكر وبقدر ما يتسع له علمى … على أنى أكاد أجزم به ، ذلك بأن مذهب كارل ماركس هو المادية الجدلية … وشتان بين المذهبين … » .

والذى قلناه نحن هو « أن مذهب كارل ماركس وهو الديالكتيك يقوم على أن المادة ثنائية الخصائص تشتمل على الخاصة ونقيضها » .

فأين هو الخطأ فى هذا الكلام ؟

الخطأ على ما يظهر فى طريقة الكشف عن الكلمات فى المعجمات ، وهى تقتضى الكشف عن الديالكتيك فى حرف الدال ، والكشف عن المادية فى حرف الميم … وشتان بين الحرفين ! !

وقد عاد الأستاذ مظهر إلى مسألة الوجود والموجودات فأعاد ما قاله الأديب المستفسر « صابر . م » فى عدد مضى من الرسالة فقال — أى الأستاذ مظهر — « إن ذلك قد يقبل فى غير لغة العلم وفى غير لغة الفلسفة لأن هذه اللغة لا تتجوز فى تحديد المعانى الدقيقة لكل لفظ … » .

فلا نزيد على أن نعيد له ما بدأناه فى الجواب على الأديب المستفسر من كلام الإمام الرازى حيث قال فى المناظرات : « إن كان غرضك إظهار الفرق بين التكوين والمكون بحسب اللفظ والعبارة فإنه يقال كوّن يكوّن تكويناً فهو مكون وذاك مكون فالتكوين مصدر والمكون مفعول . والفرق بين المصدر والمفعول معلوم فى اللغات . إلا أن الفرق الحاصل بحسب اللغات لا يوجب الفرق فى الحقائق والمعانى . ألا ترى أنه يقال عدم يعدم عدماً فهو معدوم ، فالعدم مصدر والمعدوم مفعول . ذلك لا يوجب الفرق بينهما فى الحقيقة » .

ونظن أن الإمام الرازى مفسر القرآن ومفسر مذاهب الفلاسفة يعرف فى اللغة والفلسفة ما يجوز وما لا يجوز .

***

وقال الأستاذ مظهر يمنينا : « أما كلامه فى مذهب التطور فظاهر من عباراته التى ساقها أنه لم يفرق بين البحث فى التطور والبحث فى نشوء الحياة ، إن الأمرين مختلفين جد الاختلاف » .

وهذا كلام لا يجاب عليه إلا بالإيجاز … ولكن بلغة التحدى التى تبتدىء من الخط الثلث إلى « بنط ٨ » فى المطابع المصرية .

فنقول للأستاذ مظهر : أذكر لنا عالماً واحداً من علماء التطور ، أو كتاباً واحداً من كتب التطور ، أو صفحة واحدة من صفحات كتب التطور ، أو سطراً واحداً من سطورها — يفصل بين التطور وبين نشوء الحياة فى مذهب الماديين .

ونحن فى الانتظار ولا نزيد .

ثم قال : « أما قول الأستاذ أن أجهل همجى لهو أصدق

شعوراً بالعالم من الفيلسوف المصرى الذى يحصر الحياة هذا الحصر العجيب ... فهل نصدق حقيقة أن أجهل همجى هو أصدق شعوراً بالعالم من پلاس و كونت وكانت وداروين وبرجسون » .

وعندنا نحن أن الأستاذ مظهر بحاجة إلى مراجعة برجسون وداروين وكانت ولاپلاس ليعلم أنهم لا يحصرون العالم، ولا يختمونه فى علبة صغيرة ، كالعلبة التى يملكها الأستاذ مظهر على ما يظهر ، ونفضل له أن يملأها بالوهم — من أى صنف من الأصناف — ولا يملأها « بعلم » لم يستند إلى علم ولا إلى فلسفة ولا إلى عقيدة ... اللهم إلا المعجبات وأشباه المعجبات !

عباس محمود العقاد

رجل فى ملابس النساء !

للأستـــــاذ على الطنطاوى

قرأت فى (أخبار اليـوم) أن الشرطة عثرت على (فلان) قتيلا فى داره ... وقالت عن هذا القتيل أنه كان يلبس ملابس النساء ، ويفضلها على ملابس الرجال ، لأن أمه لما ولدته كانت ترجو أن يكون بنتاً لذلك دعته (فلانة) وألبسته ملابس البنات ونشأته على ذلك ، وقالت الجريدة أنه كان غنياً واسع الثروة فأراد يوماً أن يؤلف لجنة فى (حزب سياسى) للسيدات يكون هو رئيسها فأوفدت إليه الشرطة من يهدده بالاعتقال والنفى إلى الطور إن هو فعل .

***

قرأت هذا فوقفت عنده وفكرت فيه ، فوجدت الجريدة قد ساقت هذا الخبر لتعجّب الناس من أمرين هما : لبس الرجل لباس المرأة ، ودخوله فى لجنة السيدات — وما فى واحد منهما عجب ، ولا أدرى ماذا وجدت فيه الجريدة حتى عجّبت منه الناس وما دمنا لا ننكر على المرأة أن تلبس لباس الرجل ، وتستعير سراويلاته (بنطالونه) ، وتجزّ شعرها تشبهاً به ، وتتخذ مثل قميصه وردائه ؛ فلماذا ننكر على الرجل أن يلبس ثيابها مرة واحدة ؟

ولماذا ننكر عليه دخوله مرة واحدة فى لجنة السيدات ، ولا ننكر على السيدات دخولهن فى لجان الرجال ومشاركتهم فى أعمالهم ، من سوق السيارة إلى تدريس الجامعة وأيهما أعجب واغرب ، وأبعد عن سنن الله ومألوف الناس ، أأن يرأس رجل لجنة السيدات فى حزب من الأحزاب ، أم أن تقعد آنسة جميلة على منبر التدريس مثلاً ... تعلم شباباً كباراً ... علماً لم تختص هى به ، ولم تنفرد بحمله ، ولم ينقرض الرجال حتى لم يبق لتدريسه إلا هى ، وليست أصلح له ولا أقدر عليه من رجال هم مستعدون للقيام به ، راغبون فى أدائه ؟

فلماذا نستضعف الرجل فنحمل عليه ، ونظلمه هذا الظلم البيّن ، ونهاب الجنس (المخيف) أن نقول لأهله كلمة ، أو نشير إشارة ؟

وأين المساواة بين الجنسين التى ندعو إليها دائماً ، ونتجمل بترديدها ، ونتباهى بها ، ونحن لا نفهم معناها ، ولا ندرى علام تدل وإلام توصل ؟

***

وهل انفرد هذا الرجل وحده بلبسه غير لباسه ، وتزيّيه بغير زيّه ؟ ألسنا نرى كل يوم أناساً يتزيّون بزىّ الصالحين ، ويحملون سبحات المسبحين ، ويقومون فى المساجد مع المصلّين ، ثم لا تعاملهم إلا غشوك ، ولا تخبرهم إلا وجدتهم طلاب مراتب ورواتب ، أو باغى منافع ، ولا تراهم إلا متزلّفين لكل صاحب سلطان ، خاضعين له ، يؤثرون رضاه على رضا الله ، ويخافون غضبه أكثر من غضب الله . إذا رأوا الحرام منه خرسوا عنه ، وإن رأوا المكروه من غيره أقاموا الدنيا عليه ...

ومشايخ طرق ظاهرهم مع مريديهم ظاهر الفقراء الزاهدين ، وحقائقهم مع أهليهم وإخوانهم ، حقائق الفساق الذين ينتهكون كل حرمة ، ويبتغون كل لذة ، ويعيشون حياة ليس فيها شىء لله ولا للشرف .

أولسنا نرى كل يوم عملاء للأجانب ، كالذين ذكرهم الأستاذ رمزى بك ، يدرسون على حساب الأجنبى فى مدارسه ، ويتربون على يديه ، ويسبّحون بحمده ، يتوجهون أنّى وجههم ، ويعملون له فيما استعملهم ، ويعرفهم الناس هم وآباؤهم من قبلهم صنائعه وعبيده ، يلبسون فجأة ثياب الوطنيين المخلصين ، أو دعاة الدين

الصالحين ، ثم يدخلون (بأمر الأجنبي) الحزب أو الجمعية ، فلا يلبثون أن يكونوا هم أربابها ، وأن يقصوا عنها أصحابها ، ثم يصرّفونها لمصلحة الأجنبي ، يخدمونه وهم يسبّونه ، قلوبهم وأيديهم معه وألسنتهم عليه ، وعملهم لمصلحته وإن كانت ظواهرهم لمحاربته ؟

أولسنا نرى أغبياء جهلاء يلبسون ثياب العلماء الأذكياء ، وأدنياء يزهون بحلل الأعلياء ، وأعداء يرتدون أردية الأصدقاء ؟

فلماذا نفرد هذا القتيل المسكين بالملامة ، ونخصه بالنقد ؟

* * *

وهل كل من حمل شارب الرجل ، ولبس لباسه ، كان رجلا ؟ لو كان هؤلاء ... كلهم رجالا فهل كان يمكن أن تبقى بلاد العرب إلى اليوم مجزأة مقطعة ، تفصل بينها حدود وأعلام ، يطؤها الأجنبي ويتحكم فيها ، ويستغلها ويستعبد أبناءها ؟ إن الرجال حقاً هم الأربعون الذين كانوا مستخفين في دار الأرقم في أصل الصفا ، فلم تمر عليهم ثلاثون سنة حتى فتحوا نصف الدنيا ، لا هؤلاء الأربعمائة مليون الذين ناموا منذ ثلاثمائة سنة حتى تجرأت عليهم نصف شعوب الدنيا ؟ لو كان هؤلاء رجالا حقاً واجتمعوا على الأسطول الأنكليزي لحملوه حملا على أكتافهم ، ولو نفخوا كلهم نفخة واحدة لطيّروا الجيش الأنكليزي المرابط عند القناة ولو بصقوا كلهم بصقة واحدة لأغرقوا يهود العالم ...

ولكنهم أشباه الرجال ، ولبسهم لباس الرجال لا يقل عجباً وغرابة ، عن لبس هذا القتيل لباس النساء ...

* * *

ولماذا ننكر عليه أن يكون رئيس لجنة السيدات ال(حزبيات) ولا ننكر على السيدات أن يؤلفن هذه اللجنة ؟ وما للسيدات وأعمال الأحزاب ؟ إنه إن دخل فيها فهذا عمله ، وهذا مكانه ، ليس هو الطارىء الواغل فيه ، ولكن السيدات المحترمات ... فهن أولى بالإنكار ، وأحق بالمنع ، لا احتقاراً لهن وزراية عليهن بل إكراماً لهن ، وترفعاً بهن أن ينزلن إلى هذه المنزلة ، وينحططن إلى هذه الدركة ، وهل جنى الرجال من الحزبيات في بلادنا خيراً حتى يجنيه منها النساء ؟ هل رأينا فيها إلا الفرقة والانقسام ، واستغلال نفر منا إخلاص المخلصين ، واندفاع المندفعين ، وطمع الطامعين ، للوصول إلى كراسي الحكم ، والتمتع بأموال الدولة ؟ وماذا نرى المراقب البعيد ، من تبدل الحكومات في هذا الشرق العربي ، وتعاقب الأحزاب عليها ، إلا تبدل الوجوه ، وتغيّر الأشخاص ، أما الأسلوب فهو واحد ، والسياسة واحدة ، يتبدل الوزّان ويبقى الميزان ؟ والميزان مختل ، والقب مائل ، والصنجات ضائعات !

* * *

أو لسنا جميعاً مثل هذا القتيل نلبس لباساً لم يفصّل لنا ، ولم يقس علينا ، ولكنه خيط لغيرنا ، فأخذناه كما هو بلا إصلاح ، ومشينا فيه كما يمشي الطفل بحلة أبيه يتعثر بها فيسقط ، فيضحك أهله عليه ، ويسليهم بفعله

لقد أخذنا هذه المدنية كما هي ، لم نحكم فيها عقولنا وشرائعنا وطبائع بلادنا ، ولوازم معيشتنا ، كما تفعل كل أمة في الدنيا ، فتستوي الأمم في أصول الحضارات ، وأسس المدنيات ، ولكنها تختلف في التفاصيل ، فلا تبنى البيوت وتخاط الثياب في البلاد الباردة كما تبنى وتخاط في البلاد الحارة ، ولا تخطط المدن في شعاف الجبال كما تخطط في السهول أو على سواحل البحار ، ولا تكون الأطعمة في حدود القطب كما تكون في خط الاستواء ، وما يسوغ ويقبل في بلد قد ينكر ويرد في بلد ، وما يحسن في لسان من أساليب البيان يقبح في لسان ، وما يجمل في أذن من ألحان الغناء يبشع في أذن ، ليس في الدنيا بلدان متحضران تستوي فيهما هذه الدقائق كلها ، وإلا لما كان معنى لاختلاف الحضارات ، وتعدد الثقافات ، وتكلف مشاق الرحلات ، ولكان السائح الذي يرى فرنسا كأنه رأى ألمانيا ، والذي يبصر أمريكا كأنه أبصر روسيا ، وليس في الدنيا حضارة أصيلة إلا ولها طابع خاص بها ، فما هو طابعنا نحن في حضارتنا الجديدة ؟ ما هو الثوب الذي نلبسه ؟

ادخل أي دار من الدور ، وسر في أي شارع من الشوارع ، في مصر أو الشام أو العراق ، تجد الجواب ، تجد في الدار الواحدة غرفة مفروشة بالبساط والوسادة وفيها فراش على الأرض ، وغرفة فيها أحدث ما صنع من الأرائك والكراسي والمناضد ، ودقق في هذه الغرفة تجد فيها خليطا من الذوق الفرنسي والإنكليزي ، وفي صدرها مرآة من أسلوب عهد لويس الرابع عشر ، وأمامها نضد على الطريقة الأمريكية ، وتجد بين الأم وبنتها في اللباس

والعادات والأفكار قرناً كاملا ، وتجد بين الدار وأختها فرقاً هائلا ، في العمارة والفرش والذوق والترتيب ، مع أنك تدخل بيوت عمارة يسكنها إنكليز أو فرنسيون ، فتحسّ على اختلاف الغنى والذوق ، أن لها طابعاً عاماً يبدو على كل منها ، وإن تفاوتت درجات ظهوره وخفائه ؛ وتجد في الشارع ألواناً من الألبسة والأزياء ، يحسبها الغريب أزياء عيد الساخر (الكرنفال) ، وادخل المدارس تجد في المناهج ، وفي المبادئ العلمية والسياسية والاجتماعية التي تعرض على التلميذ ، وفي آراء المدرسين ومذاهبهم (كرنفالا) آخر ، ولكنه أغرب وأشد اختلافاً ، وأكبر ضرراً ، وفي المبادئ الحقوقية في التشريع ، وفي المذاهب البيانية في الأدب ، وفي الصحافة وفي السينما وفي كل شيء (كرنفال) ضخم ، ليس له يوم واحد ينقضي بانقضائه ، ولكنه دائم باق لا انقضاء له

وأنا لا أدعو لنبذ الحضارة الغربية ، بل أدعو إلى أخذ ما ينفعنا منها ، وأن لا نأخذها أخذ العامي للراد (الراديو) ، لا يفهم منه إلا أنه يأتيه بالأصوات ، فيفتحه على مصراعيه ، ويزعج به الجيران ، ويكرّه إليهم الحياة بجواره ، بل أخذ العالم الذي يعرف وجوه استعماله ، ويدرك تركيبه ، فيصلحه إذا فسد ، ويكمله إذا وجده ناقصاً ، ويصنع مثله أو يخترع أحسن منه ، أي أن نتعلم علومهم ، ونتقن فنونهم ، وندرس أخلاقهم ، ثم نرى ما زيدنا منها قوة ، وسعادة للفرد منا والجماعة ، وسهولة في العمل ، ولذة في المعيشة ، فنأخذه كما هو ، أو نعدله حتى يصلح لنا ، وأن ننقله إلينا ، ونجعله ملكا لنا ، لا أن ننتقل به إلى أمة غير أمتنا ، وطبيعة غير طبيعتنا ، وأن ننظر ما فعله أجدادنا في أول العهد العباسي ، مع الحضارة الفارسية مثلا فنصنع مثله ، إنهم أخذوا كل نافع في الطعام والشراب واللباس والمسكن وفنون القول وطرائق الفكر ، ولكنهم لم يصيروا به فرساً ، بل جعلوا به الفرس عرباً ، أما أن نأخذ النافع والضار ، والجليل والحقير ، بلا فهم ولا علم ، فهذا تقليد كتقليد القردة ...

* * *

وبعد ، فلماذا ننكر على هذا الرجل أنه فقد عزة الرجولة ، واتخذ لباس المرأة ، ولا ننكر على الكثرة الكاثرة من هذه الأمة أنها فقدت عزتها ، واعتدادها بنفسها ، وكبرياءها القومية ، وشعورها أنها أمة هي أعظم الأمم في الجاهلية وفي الإسلام ، وأنها إن قدر عليها أن تذل حيناً ، فما من أمة إلا وقد ذلت مرة ، ولكنها لن تذل مرة أخرى ، ولن تعود إلى الغفلة والمنام ...

إن رأس أدوائنا هو هذا اللطف ، والحرص على أن نكون مؤدبين ، لا نؤذي محدثنا أو جليسنا . هذا اللطف وهذا الإكرام للضيف هو الذي جرأ علينا الأجانب ، جنوداً وتجاراً ، حتى ملكونا بجيوشهم ومعاملهم وشركاتهم ومتاجرهم ، ولا خلاص لنا ، أعني لا خلاص لمصر من هذا كله إلا بأربع خلائق يجب على كتابها وصحفيها ومدرسيها وصانعي أفلامها أن يعلموها الناس وأن يخلقوهم بها ، هي حب المال أولا ، وحب المال إن زاد كان مذمة للفرد ونقيصة ، ولكنه لا يكون للشعب إلا خيراً ، وما أفلح شعب لا يحب في مجموعه المال . وحب الأسفار ثانياً ...

كونوا كإخوانكم الشاميين ، هل طلع كوكب إلا على نفر منهم؟ اقتحموا البحر والصحراء ، إلى أمريكا شمالها وجنوبها ، وأفريقية أدناها وأقصاها ، والهند واليابان وأوربة ، وما نزلوا بلداً إلا كانوا من كبار تجاره ، ومن وجوه سراته ، عاشوا تحت كل نجم ، وجابوا كل أرض ، وخالطوا كل أمة ...

وترك هذا اللطف ثالثاً ، وتعود الشدة في الحق ، والثقل على العدو ، والمزاحمة على العيش ، وأن يحس كل مصري بعد هذا كله ، بل قبل هذا كله ، أن البلد بلده وأنه أحق به من كل خواجة وكل دخيل ، وأن له هو طيباته وخيراته ، وأنه أكرم من هذا الدخيل (كائناً من كان هذا الدخيل) أصلا ، وأعز نسباً ، وأبين لساناً ، وأقوم ديناً ، وأجل أثراً في الدنيا ، فلا يطأطئ رأسه لأحد ، ولا يحني هامته لإنسان ، ولا يرضى بالدنيّة من مخلوق في الدنيا .

بهذه الأخلاق تنقلب أمة أخرى ، ويرى هؤلاء الأجانب ماذا يصنع الأسد الجريح ، إذا برئ ، بالثعالب التي كانت تلعق من دمه .

والويل يومئذ للثعالب !!

(القاهرة) علي الطنطاوي

القسم العاشر :

الاستعمار الفرنسي
في الجزائر العربية
يولية ١٨٣٠ – يولية ١٩٤٧

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق » قرآن كريم

للأستاذ أحمد رمزي بك

إنه نبأ هذه الأمة الجزائرية العربية التي تسكن أرض الجزائر ولها على هذا الوطن الحق الطبيعي التاريخي الثابت الذي لا تضعفه أقاويل فرنسا وادعا آتها لأنه منبعث من ثنايا القرون المديدة التي أمضتها هذه الأمة على أرضها وهي تتمتع بكامل شخصيتها وميزاتها لا يشاركها فيها أي مشارك ولا ينازعها في أمجادها أي منازع .

إنها قضية تسعة ملايين نسمة من المسلمين تحاول فرنسا أن تجعل منهم قطيعاً في بلادهم وعلى الأرض التي حملت تاريخ آبائهم وأجدادهم : أتدرى أنهم محرومون من كل حق سياسي أو اجتماعي أو ثقافي ؟ وأنهم لا يستطيعون أن يجهروا بأقوالهم ومشاعرهم ؟ لأن حرية القول وحرية الاجتماع وحرية الصحافة بل حرياتهم الدينية محرمة عليهم .

ولكي تحتفظ فرنسا بإدارتها الاستعمارية وجبروتها تلجأ إلى فرض نوع من الرقابة البوليسية لا يقل عن أشد أنواع الجستابو الذي فرضته ألمانيا النازية والجيبيو الذي فرضته روسيا السوفيتية على أراضيها : إنها تجعل من إدارة الأمن العام والمكاتب الوطنية أداة للارهاب والتشريد والتجسس وكبت الحريات لدرجة أنها تصرف خمس الميزانية على هذه الأداة البوليسية الجبارة .

تصور حكومة تشترى كيانها وحكمها وإدارتها بأن توزع خمس أموالها على هيئة بوليسية للقمع والارهاب . ماذا يبقى لها أن تنفقه في ميادين الحياة العامة ونشر التعليم والصحة ؟ وهي مضطرة أن تحتفظ بجانب هذا بمبالغ للصرف على الجيش والقوات المسلحة الأخرى ؟

لقد عرفنا شاتينيو Chatégneau سكرتيراً عاماً لمفوضية فرنسا بسوريا ولبنان ولمحنا في أحاديثه وأقواله الرجل الفرنسي المتمسك بمبادىء الثورة الفرنسية وتقاليدها المنبعثة مما أعلنته عن حقوق الانسان . كان يصرح بهذا وبلاده تحت الحكم النازي وسيطرة جيش الاحتلال ودارت الأيام فاذا به يشغل مركز الحاكم الفرنسي العام : إنه ممثل الجمهورية في بلاد الجزائر وهاهوذا قد لبس لباس الاشتراكية وجاهر بحقوق الأمم المظلومة ولكنها في نظره وفي عقيدة أمثاله من اليساريين من اشتراكيين وشيوعيين قاصرة على الأمم الأوروبية وحدها . أما شعوب الشرق وأمم الاسلام فهي في الجزائر أو شمال أفريقية وفي بخارى وأواسط أسيا سواء في تحمل الضغط والخضوع لسيطرة الاستعمار الفرنسي أو السوفييتي .

ما ذا يقول حاكم الجزائر الاشتراكي ! إنه يقرر في خطابه الذي ألقاه يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٥ في المجلس المالي الجزائري « إن تضخم أرقام الميزانية راجع إلى زيادة عدد الموظفين في إدارة الأمن العام . »

أي أن حكومة الجزائر الاستعمارية الرجعية التعسفية والتي يوجد على رأسها حاكم اشتراكي ، تشترى وجودها بثمن باهظ من حياة الشعب الجزائري ، إذ تفرض عليه الجهل الدائم لتعيش مع جيش موظفيها ، إنها تترك الأمراض تسرى وسط جماعاته والتنون تأكل من أطفاله لكي تعيش هي مع جيش من الموظفين الفرنسيين يخدمون مآربها ويؤكدون سلطانها وجبروتها عليه .

وفي الوقت الذي تصرف فيه فرنسا على بوليسها وعيونها هذه الثروة الطائلة من أموال الشعب الجزائري ، نجد أن ما خصصته من هذه الميزانية للصحة العامة لا يتجاوز أربعمائة وثلاثين مليونا من الفرنكات وما أرصدته منها للتعليم أقل من ذلك بكثير .

لذلك انتشرت الأمراض بين طبقات الأمة وضج المستعمرون حينما تبين لهم أن نسبة القادرين على حمل السلاح من الجنود الوطنيين قد هبطت لأن الأحوال الصحية لم تعد تسعف الأتون الفرنسي بالآلاف المؤلفة من أبناء العرب الجزائريين لدفعها إلى جوفه في حملاته الاستعمارية وليحولها إلى أشلاء وهيا كل عظمية إنه يطلب المزيد من ضحاياه .

فهذه القوة الجبارة التي تسمى إدارة الأمن العام ، أداة استبدادية نجدها في تحفز دائم واستعداد تام للانقضاض على الشعب الجزائري ، إذا تحرك أو أظهر امتعاضاً إنها تمكن المستعمرين

من إبعاد أمة بأسرها عن دفة الحكم وعن تولى المصالح العامة فى بلادها ، أى تجعل من شعب يزيد تعداده على تسعة ملايين نسمة غريباً فى بلاده ، طريداً فى وطنه منبوذاً على الثرى الذى حمل سطوة آبائه وأجداده ، بل تفعل أكثر من هذا إنها تقيم بينه وبين العالم سداً لا يجعله يبصر شيئاً مما وراءه لأنها تعزله عن الدنيا كما يعزل الموبوء والمجذوم كيلا يرى نور العالم . ألا فليعلم العالم أجمع أن أهل الجزائر محرومون فى بلادهم من قراءة الجرائد العربية التى تأتى إليهم ، وأن لدى المكاتب العامة قواعد لا تسمح لها أن تمير الوطنيين حتى الكتب الفرنسية التى تتحدث عن الحرية وآمال الشعوب .

فهل رأيتم سداً كهذا السد ؟ .

أما فى الميدان الاقتصادى فما من شعب من شعوب الدنيا تحمل ما تحمله الشعب الجزائرى منذ وضعت فرنسا قدمها فى شمال أفريقيا . إنها أخذت تنهب الثروة الوطنية وتصادر أملاك الأهالى وتجعل أراضى الحكومة والدولة وخيرات الأمة وقفاً على المستعمرين الفرنسيين ومن لاذ بهم من طريدى الجنسيات الأخرى ...

ولقد نقل صاحب كتاب تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبدالقادر وأخبار الجزائر . أن قائد الجنود الفرنسية رتب مجلساً من رؤساء الجند لضبط الخزائن من الأموال والمهمات الحربيـة والذخائر فتحصل من ضبطها على ما قيل من الذهب والفضة وقيمة الجواهر ٥٢٧ و ٦٨٠ و ٤٨ فرنكا من الذهب ، ومن الحنطة والشعير ٣ ملايين ومن المدافع والبنادق والبارود والقنابل وغيرها مع ثمن الأملاك الأميرية ٥٠ مليونا .

فهذه الثروة الطائلة التى وقعت غنيمة بأيديهم عند الفتح ، علمتهم طريق الاستحواذ على غيرها فإذا هم من يولية ١٨٣٠ إلى ١٩٤٧ يسيرون على هذا المنوال من المصادرة والاغتصاب حتى انتهوا بأن فرضوا الفقر والفاقة والإملاق على شعب بأسره .

وهـذه الثروة الطائلة قد غطت ما تكلفته الحملة الفرنسية الأولى من أعباء مالية علاوة على ضياع الديون التى كانت فرنسا مدينة بها لحكومة الجزائر الإسلامية .

أما مصادرة أملاك الوطنيين فسياسة وضعتها فرنسا وقلدتها فيها إيطاليا وإسبانيا وهى تتلخص فى تحديد منطقة خصبة من الأراضى ونزع ملكيتها اغتصابا ونقل سكانها بالقوة منها .

وقد عمدت فرنسا لأول مرة إلى هذه السياسة فى أقاليم القبائل وفى جهة قسنطينة كعقاب أنزلته بالسكان الجزائريين عقب ثورة عام ١٨٧١ ، إذ نزعت ملكية ما مقداره خمسة ملايين من الأفدنة المصرية ، منها مليون فدان من أجود الأراضى الخصبة شردت أصحابها وجعلت هذه الأراضى لإسكان المهاجرين الفرنسيين خصوصا أهالى الألزاس واللورين ، وهم الذين طلب باسمهم الكردنيال لا فيجرى تسليمهم هذه الأراضى وإخراج الأهالى الوطنيين منها بدون أن يعوض أصحابها بشىء .

وقد سارت حكومة الاستعمار على طريقة فرض الغرامات الباهظة وتحصيلها بالشدة المتناهية فأخذت ملايين الفرنكات من أهالى المقاطعات التى قامت بثورة القبائل وعرف الوطنيون الذلة والمسكنة وبيع الأراضى والدور فى سبيل عتق رقابهم .

ولا يزال بعض الإخوان المغاربة الذين لقوا الويل على أيدى فرنسا يحدثون أهل الشام بهذه الكوارث ويقولون لهم أنتم بخير ما دمتم بعيدين عن حكم فرنسا المباشر وهو الذى يمثله قاضى الصلح الفرنسى وحارس الأحراش فالثانى يكتب المخالفات والأول يصدق غيابيا عليها مما يشعر صاحب الملك الوطنى ألا والتنبيه بنزع الملكية يلاحقه فلا يقدر أن يفلت من يدى القضاء إلا وهو يجرد من كل ما يملك .

وبهذه الأساليب والقواعد التعسفية خرجت أحسن وأخصب الأراضى الزراعية وأجودها من أيدى الوطنيين وأصبحت تحت يد المستعمرين الفرنسيين ونزلت نسبة أملاك الجزائريين إلى ٣٦ ٪ من الأراضى الزراعية التى كان يملكها الجزائريون إرثا عن آبائهم وأجدادهم .

وأدخل الفرنسيون فلاحة الكروم التى شغلت أكثر من ستة ملايين فداناً وهى كروم مخصصة لأنواع الأنبذة فهبطت مساحات الأراضى المخصصة للحنطة والمحاصيل الحيوية لمعيشة السكان الوطنيين وتعرضت مناطق الجزائر لأخطر المجاعات التى انتابت أفريقيا فى العصور الحديثة نتيجة لتلك السياسة الاستعمارية التى انتزعت من الأهالى أخصب أراضيهم وجعلت منهم عمالا أجراء يعملون لدى الكولون الفرنسى لقاء دراهم معدودة فى أراضى كانوا يتملكونها فى الأمس القريب .

فالبلاد الجزائرية التي كانت قبل ١٨٣٠ تكفي سكانها من محاصيلها الزراعية وتصدر من خيراتها الشيء الكثير ، قد أصبحت في موقف اقتصادي يجعلها عالة على غيرها في إطعام سكانها وإعاشتهم ، لأن الاقتصاد الزراعي والإنتاجي الذي فرضته فرنسا عليها لا يتفق مع حياة السكان الوطنيين ومصالحهم وموارد رزقهم وتنظيم أمور معاشهم فهم في فقر مدقع واحتياج دائم ويموت من هؤلاء الآف كل سنة بسبب الإملاق والمرض وسوء التغذية .

وقد مات في سنة واحدة حسب التقارير الفرنسية ما يقرب من نصف مليون جزائري إبان المجاعات التي انتابت بلاد الجزائر في إحدى سنوات القرن الماضي ولم تحرك هذه النكبة أحداً من الأجانب الذين لم يشعروا بها وكانوا في رغد من العيش دائم .

إن قيام سلطة حكومية فرنسية بالجزائر أمضت أكثر من مائة عام ، لا يهمها شيء من أمور الوطنيين أمر لا يقبله نظام العالم الجديد ولا يمكن أن يسلم به دعاة الحرية ومن يتبجحون بمبادىء رفع الظلم عن الشعوب المغلوبة على أمرها . فهذه حكومة تفرض الامتيازات وحقوق الإنسان لفريق من السكان تمنحه كل الخيرات والباقي منهم أي تسعة أعشار السكان وهم أهل البلاد مجردون من كل حق لهم بل تطاردهم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وتسير بهم نحو التشريد والإفناء .

وفي سبيل إبقاء هذه الحالة تحرم الحكومة الجزائرية الفرنسية؛ أهل الجزائر من حق التعليم وما يتبعه من حق النفوذ الإجتماعي .

فهي منذ سنة ١٨٣٠ أبطلت كافة المؤسسات الثقافية والتعليمية التي كانت قائمة بمدينة الجزائر وفرضت سياسة الجهل المطبق ومحاربة اللغة العربية ، لغة البلاد الرسمية واعتبرتها لغة أجنبية، بل ذهبت لأكثر من ذلك إذ حرمت تعليم القرآن الكريم في الكتاتيب إلا إذا علمت معه الفرنسية فكم عدد هذه التي بوسعها أن تعلم لغة أجنبية فيها ؟ كان هذا القانون بمثابة حرمان الأهالي من تعلم الكتاب الكريم ولا يوجد ما يشبه هذا القانون سوى الإجراءات التعسفية التي فرضتها حكومة فرديناند وإزابلا على أهالي غرناطة المسلمين عندما أوقعهم سوء الحظ تحت بطش قوم نزعت كل عواطف الإنسانية من قلوبهم .

ولعل أعظم ما تمتاز به الإدارة الفرنسية بالجزائر هو محاولة نشر الجهل وتعميم الأمية بين طبقات الشعب الجزائري حتى لا تقوم له قائمة أو يشعر بشخصيته ووجوده .

فقد صرح عميد الجامعة الجزائرية أمام لجنة الإصلاحات الإسلامية في يناير سنة ١٩٤٢ بمدينة الجزائر « أن بين ١٫٢٥٠٫٠٠٠ طفل وطني في سن الدراسة ١٠٠٫٠٠٠ فقط خصصت لهم ٦٩٩ مدرسة ، وأن عدد الأوربيين حسب الإحصاء ٩٠٠٠٠٠ وعدد أبنائهم الذين يتمتعون بالتثقيف والتعليم الابتدائي ٢٠٠٫٠٠٠ طفل خصصت لهم ١٤٠٠ مدرسة »

هذه أرقام تتحدث بنفسها عن سياسة فرنسا إزاء رعاياها المسلمين بالجزائر ولو شئنا أن نقيس حالتهم في درجات التعليم العالي والثانوي لرأينا العجب العجاب ، فإن النسبة لا تتعدى فيها عشرة في المائة بأي حال من الأحوال ، ولم نكن نصدق شيئاً من ذلك حتى عاينا هذا بأنفسنا في بعض المعاهد الفرنسية التي تفرض لأبناء المسلمين نسبة معينة لا تتعداها مهما كانت ظروف أهليهم

وذلك لكي يقترن الإسلام بالجهل وتلصق بالمسلمين ظلماً وصمات التعصب والتأخر وعدم الرقي والخروج عن ركب الحضارة في القرن العشرين .

هذه سياسة أمة تقول أنها أعلنت حقوق الإنسان وبشرت العالم بدين جديد بمبادئه وبالحرية والعدالة والمساواة ، وأنها هدمت بثورتها صروحاً للاستبداد ويزيد الفرنسيون على ذلك قولهم أنهم حملوا أعلام الحرية والرقي والسعادة إلى بلاد الجزائر، ولقد رأيت فيما تقدم البراهين القوية على سيطرتهم وجبروتهم وإفلاسهم في حكم الجزائر .

ليس لدينا للآن دليل قاطع على توجه العالم نحو المثل العليا بل إن موقف مجلس الأمن إزاء قضايا مصر وفلسطين وأندونيسيا ليس مشجعاً ولعل انقسام الكرة الأرضية إلى معسكرين من أسباب هذه الرجعية القائمة في أنحاء الدنيا .

ولكن الشعوب مهما كانت الظروف القائمة عليها أن تشق طريقها إلى حياة النور وأن تعمل لتتغلب على المصاعب القائمة حتى تفرض شخصيتها وآمالها وأهدافها على العصر الذي تعيش فيه .

سيكون الطريق وعراً أمامنا والعقبات صعبة في صعودنا نحو الحرية والعدالة ولكننا لن نرجع عن طلب معاملة الند للند وأن يعتبرنا العالم مجموعاً حياً راقياً ؛ تملك من حق الرعاية والمعاملة ما يملكه أي مجموع أوربي راق يسير نحو التطور إننا نفضل أن نفنى جميعاً من أن يحاول العالم إرضاءنا بالعرض دون الجوهر أو يلهينا بالأقوال دون الحقائق . إننا نأخذ عقلية أوروبا لنتغلب على جبروت أوروبا .

أحمد رمزي

الخمرة النصرانية ومجالسها
في العصر العباسي

للأستاذ شكري محمود أحمد

اشتهرت الخمرة النصرانية بالجودة والقدم، كما عرفت برائحتها الذكية وطعمها اللاذع، فتغنى الشعراء بذكرها، وفتنوا بنعتها، فوصفوا الكأس والنديم والنقل والزهر والتحايا (١) والصبوح والغبوق وكل ما يتعلق بمجلسها من عزف ونزف وغناء وقيان وسقاة وتهتك ومجون، وما يتبع ذلك من حوادث مشهورة، وأخبار مذكورة وقصائد طريفة ونعوت جميلة حفلت بها كتب الأدب والسير والشعر.

وقد نعتت الخمرة بالقدم، فهي تذكر نوحاً حين شاد الفلك، بل هي ترب الدهر في قدمها، عاشت معه، ودرجت في حجره، حتى لو أنها احتبت بين الندامى لقصت عليهم قصة الأمم، وروت لهم حوادث التاريخ . . . وهي عجوز قد علت على الحقب حتى عكفت عليها بنات الدهر، وعجمت النير حتى اختمرت بخمار الشيب وهي في رحم الكرم ... ثم هي شقيقة النفس تنفي الهم وتذهب الحزن فتجعل السقيم صحيحاً، والقبيح جميلا، والصغير كبيراً ...

وربما عبدها بعضهم، فأثنى عليها بآلائها، وسماها أحسن أسمائها، ونزهها عن الغر القدم الذي لا يعرف لها قدرها، وخص بها السادة الكرام من كل مطير الكف يطرب للندى ...

وكانت الخمرة عندهم لذة العمر وغاية الغايات، لا تطيب لهم الحياة إلا بها، ولا يصفو العمر إلا بين كأس وعود وقينة . . . وقد رضي أبو نواس من الدنيا بكأس وشادن . . وكان الغنم عنده أن يتممه السكر، والغرم أن يلقى صاحياً .. بل تمنى بعضهم سكرة شيطانية قبل موته تترك الصبيان خلفه يتصايحون : يا سكران . ثم يغسل بالخمر، ويكفن بأوراق الكرم، ويدفن بعد ذلك إلى جنب كرمة لتروي عروقها عظامه، وتجعل أقداح الخمر حول قبره ..

***

عرف النصارى بتعتيق الخمر، كما عرفوا بنظافة الآلة وجودة الشراب، وجمال الحانات، وتزيين مجالسها بأصناف الزهر والنقل، ووصفوا بحسن الخلق ولين الجانب، ولطف المساومة وصباحة الوجوه وجمال القسمات، لذلك كان الشعراء والمجان وأهل التهتك والتطرح يقصدون الأديار في الليل والنهار، ويختلطون بالرهبان والراهبات وفتيان الأديار، ينادمونهم ويشربون على وجوههم، فيطربون ويلذون ...

وكان الخلفاء أنفسهم يستقدمون من اشتهر من بينهم وعرف منهم لذلك لما أراد الواثق بالله الخليفة العباسي أن يعد حانتين له ولأصحابه، إحداهما على شاطئ دجلة والأخرى في دار الحرم (١) «أمر أن يختار له خمار نظيف، جميل المنظر، حاذق بأمر الشراب، ولا يكون إلا نصرانياً من أهل قطربل، فأتي له بنصراني له ابنان مليحان، وبنتان بهذه الصفة، فجعلهم الواثق في الحانتين، وضم إليهما خدماً وغلماناً وجواري رومية . وأخدم النساء في حانة الحرم، والرجال في حانة الشط» (٢).

أما بيوت الشراب التي كانت تخزن فيها الخمور فلم أجد من وصفها لنا غير أحمد بن جعفر بن شاذان في كتابه «أدب الوزير» قال :

« وينبغي لبيت الشراب أن يكون له بابان واسعان وكوتان، فأما الباب الواسع ففي يسار القبلة من قبل ريح الجنوب ، وأما الباب الضيق فمن قبل الشرق عن يمين القبلة من قبل ريح الشمال».

« وينزه بيت الشراب عن كل ريح كريه وكل قذر ، وليكن بين كل وعائين من أوعية الشراب ذراع ولتكن مراضع الأوعية

---

(١) التحايا جمع تحية وهي الرياحين والزهور التي كانت تزين بها مجالس الشراب وكانت تسمى أيضاً العمارة والعمار ومنه قول الأعشى :

فلما أتانا بعيد الكرى   سجدنا له ورفعنا العمارا

وكانوا إذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً من الريحان وحيوه به، وللنابغة في مدح آل جفنة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم   يحيون بالريحان يوم السباسب

ويوم السباسب عيد للنصارى وهو يوم الشعانين .

(١) تقع دار الحرم بالنسبة إلى خطط بغداد في عهدنا العهد في محلة «الدهانة» وكانت فيها القبة المعروفة بقبة الحمار .

(٢) مسالك الأبصار ص ٣٦٣

جافة ، فإن كانت ندية فلتفرش بالآجر أو الحجارة ، وتقدير المعصرة أن يكون طولها ضعف عرضها ».(١)

وقد كان الرهبان أنفسهم يعصرون الخمرة ، ويحفظونها في مخازنها التي كانت في الغالب تحت الأرض ، وقد وصف الشعراء الهينمة حول الدنان وتلاوة المزامير والإنجيل ، ومن ذلك قول أبي نواس :

وخمر كمين الديك أصبحت سحرة … وقد همّ نجم الليل بالخفقان
ندبت لها الخمار فانصاع مسرعاً … إلى عدد من أكؤس ودنان
دراسته الإنجيل حول دنانه … بصير بنزل الدن والكيلان(٢)

وفي مثل هذا المعنى قال عبد الصمد بن بابك :

هينم القس حولها وتغنى … بمزامير دنها الزمار
ثم لما انتمت إلى دين عيسى … شد في حقو كأسها زنار

ومن طريف ما جاء في وصف الجودة بالقدم قول شهاب الدين التلعفري ، فقد جعلها تروي حديث آدم وابليس ، وما كان بين سليمان وبلقيس ، وأن الرهبان يتلون الأناجيل لها إذا حضرت ، ويسبحون ويقدسون بأعظم ما يكون التسبيح والتقديس ، قال :

عج حيث تسمع أصوات النواقيس
من جانب الدير تحت الليل بالعيس
مستخبراً عن كميت اللون صافية … قد عتقتها أناس في النواويس
مر الزمان عليها فهي تخبر عن … ما كان من آدم قدماً وابليس
ترى الرهابين صرعى من مهابتها … إذا بدت بين شماس وقسيس
تتلى الأناجيل تعظيماً إذا حضرت … لها بأنواع تسبيح وتقديس
لها أحاديث ترويها إذا مزجت … في كأسها عن سليمان وبلقيس
يسعى بها من نصارى الدير بدر دجى
يميس في فتيـة مثل الطواويس

وامتاز سقاة الخمر من النصارى بحسن صنعتهم ، ونظافة آنيتهم ، وطهارة دنانهم ومبازلهم ، لأنهم انفردوا — في الغالب —(٣)

(١) أدب الوزير ص ٣٩ ، ٤٠

(٢) ديوان أبي نواس طبعة آصاف ص ٣٤٢

(٣) وربما كان الساقي من غير النصارى ، بل ربما كان مسلماً . جاء في الشابشتي ورقة ٢٠ ، ٢١ « ذكر أبو الشبل البرجمي قال : صرت وأنا مخمور إلى قطربل ، فدعونا خماراً فقلنا : ائتنا ببنت عشر قد أنفجها الهجير فجاء بها ، فقلنا : اسقنا ، فسقانا . فقلنا : اسقنا واشرب ، فقال : أنا مسلم وكان يهودياً قد أسلم » .

بعصرها وتعتيقها ، لذلك أقبل عليهم المجان والخلفاء ، حتى صارت الأديرة مطارح أهل اللهو ، ومواطن ذوي الخلاعة ، كما أصبحت ملتقى العشاق ومأوى الفساق ، لأن مجالس الشرب واللهو كانت تعقد في الرياض والبساتين في جوار الأديرة وخلف البيع والمعابد ، لأن الحانات كانت ملاصقة لها .

حدثنا العمري في مسالكه قال : « كان بالكوفة رجل أديب ضعيف الحال ، مهما وقع في يده شيء من المال أتى به دير حنة فيشرب حتى يسكر ثم ينصرف ، وهو القائل :

ما لذة العيش عندي غير واحدة … هي البكور إلى بعض المواخير
لحامل الذكر مأمون بوائقه ، … سهل القياد ، من العزه المداير
حتى أحل على دير ابن كافرة … من النصارى يبيع الخمر مشهور
كأنما عقد الزنار فوق نقا ، … واعتم فوق دجى الظلماء بالنور(١)

وربما أثرت هذه المجالس المرحة والحياة الناعمة برهبان الدير ومن فيه ، فتركوا ما هم عليه من نسك وعبادة وزهد ، وانغمسوا في ملاذهم ، ونسوا أعوامهم ، فخلعوا العذار ، وتهزوا مع الغواة بدلائهم ، وأساموا سرح اللهو كيفما شاؤا .

وقد اشتهر من هؤلاء قس كان بالحيرة ، ذكر خبره الخفاجي وياقوت ووصفه بعضهم قائلا :

إن بالحيرة قساً قد مجن … فتن المجان فيـه وافتتن
هجر الإنجيل من حب الصبا … ورأى الدنيا متاعاً فركن

وكان لهذا القس قلاية في ظاهر الكوفة ذكرها محمد بن عبد الرحمن التراوني ، وطلب أن يكون ريحانه من قلاية هذا القس قال :

خليلي من تيم وقيس هديتما
أضيفا بحث الكأس يومي إلى أمسي
وإن أنتما حييتماني تحيـة … فلا تعدوا ريحان قلاية القس(٢)

وكانت هذه الأديار تقصد في الليل والنهار ، ويقدم إليها أهل الطرب والمتعة من الأماكن البعيدة في السفن والسميريات أو على الخيول . وهناك يختلطون بالرهبان والراهبات ، يشربون معهم ويتغزلون بهم ، وربما صرعوا الراهبات بالخمر ، فيبدلن الخفر

(١) مسالك الأبصار ص ٣١٢

(٢) شفاء الغليل ص ١٦٢ ومعجم البلدان ج ٧ ص ١٤٣

بالتهتك ، والحياء بكشف النحور والسيقان . وفى مثل هذا يقول جحظة البرمكى الذى لا يريد أن يبقى فى حانة واحدة يقضى فيها لذته بل يريد أن ينتقل من البردان إلى أوانا ثم إلى دير العلث . وهو لا يكفيه دن (١) من الخمور بل دنان . . ودنان . . قال :

أيها الحاذقان بالله جدا ... وأصلحالى الشراع والسكانا(٢)
بلغانى — هديتما — البردانا ... وأنزلا لى من الدنان دنانا
وإذا ما أقمت شهراً تماماً ... فاقصدا بى إلى كروم أوانا
واحططا لى الشراع بالدير بالعلث ... لعلى أعاشر الرهبانا
وظباء يتلون سفراً من الانـ ... ـجيل يا كرن سحرة قربانا
لابسات من المسوح ثياباً ... جعل الله تحتها أغصانا
خفرات ، حتى إذا دارت الكا ... س كشفن النحور والسيقانا(٣)

وقريب من هـذا قول أبى نواس وقد خرج إلى دير نهرازان(٤) فى بعض أعياده مع جماعة من عصابته ، لـكنه لم يصرع راهبة بل كان « يلهو » بظبى من ظباء الدير كان يدير عليهم الخمر — قال :

بدير نهرازان لى مجلس ... وملعب وسط بساتينه
رحت إليـه ومعى فتيـة ... نزوره يوم شعانينه
بكل طـلاب الهوى فاتك ... قد آثر الدنيا على دينـه
وجىء بالدن على مرفع ... وخاتم الملج على طيـنه
وطاف بالـكاس لنا شادن ... يدميه مس الـكف من لينه
فـلم يزل يسـقى ونلهو به ... ونأخـذ القصف بآيينه (٥)

وربما هاجت بهؤلاء المجان طربات ، وثارت بهم نزوات ،

(١) الدن : الراقود العظيم يكون من انفخار أو الصلصال فى أسفله كهيئة قونس البيضة ، له عسس ، لا يقعد إلا أن يحفر له فى الأرض . قال ابن دريد : الدن عربى صحيح . وأنشد « وصلى على دنها وارتسم » وقد نقله عنا الغربيون ببعض التحريف فقالوا « Tonne » ثم عاد المعاصرون منا فأخذوه من الغربيين فقالوا « طن » ، ويراد به برميل ضخم يسع من السوائل ألف كيلوغرام ، وكل ما يزن ألف كيلوغرام يسمى اليوم فى العراق « طن »

(٢) السكان مستعمل اليوم فى عامية أهل العراق بهذا المعنى ، وكل ما يوجه آلة يسمونه سكاناً .

(٣) الشابشتى ورقة ٤٣

(٤) لم أعثر على هذا الدير فى معجم ياقوت ولا الشابشتى ولا العمرى ولم أجد هذا الاسم إلا فى شعر أبى نواس ، ولعله من ديارات الشام .

(٥) ديوان أبى نواس ص ٣٤٧ والآيين فارسى معرب معناه السياسة والأسلوب .

وهم ينزفون الدنان ، على غناء القيان ، وعزف الأوتار ، ونقر الدفوف ، وحث الـكؤوس ... وربما ذكروا الصلاة وهم فى حالهم هذه ، وقد فاتهم أوانها ، فيسرعون إليها متعثرين كأنهم يقلعون أرجلهم من طين . . وفى مثل هذه الصفة يقول إسماعيل ابن عمار الأسدى يذكر سكرة له بدير اللج مع صحب من عصابته ومعهم سعدة والزرقاء « سلامة » وربيحة ، وهن جوار مغنيات كن لابن رامين مولى عبد الملك بن بشر بن مروان وهى أبيات ظريفة منها :

ما انس سعدة والزرقاء يومهما ... باللج ، شرقيه فوق الدكاكين
تغنيانا ، كنفث السحر تودعه ... منا قلوباً غدت طوع ابن رامين
نسقى شراباً كلون النار عتقه ... يعمى الأصحاء منـه كالمجانين
إذا ذكرنا صلاة بعد ما فرطت ... قمنا إليها ، بلا عقل ولا دين
نمشى إليها بطاء ، لا حراك بنا ... كأن أرجلنا يقلعن من طين
أو مشى عميان دير لا دليل لهم ... سوى العصى إلى عيد الشعانين
أهوى ربيحة إن الله فضلها ... بحسنها ، وغناء ذى أفانين (١)

وربما سكر هؤلاء المجان مع قسيس الدير ، وقد شمطت يداه وأرعشه الإدمان ، فيبكى ويغنى ، ويشرب دمعه وخمره ، تمده أريحية مخمورة ، وعاطفة مسجورة ، وفى مثل هذه الحال يقول جحظة فى دير المذارى الذى فى سامراء ، وفيها أبيات وجيعة تنتفض ألما ورقة ، قال :

ألاهل إلى دير العذارى ونظرة ... إلى الخير من قبل الممات سبيل
وهل لى بحانات المطيرة سكرة ... تعلل نفسى ، والنسيم عليل
إلى فتية ما شتت العذل شملهم ... شعارهم عند الصباح شمول
وقد نطق الناقوس بعد سكوته ... وشمعل قسيس ، ولاح فتيل
يريد انتصاباً للقيام برغمه ، ... ويرعشـه الادمان فهو يميل
يغنى وأسباب الصواب تمده ... وليس له فيما يقول مثيـل :
(الأهل شم الخزامى ونظرة ... إلى الخير من قبل الممات سبيل)
وثنى يغنى ، وهو يلمس كأسه ، ... وأدمعه من وجنتيه تسيل :
(سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى ... ويحدث بعـدى للخليل خليل)
سقى الله عمراً لم تكن فيه علقة ... لهم ، ولم يكنو على عذول (٢)

(١) معجم ما استعجم ص ٦٤٩

(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ١٥٢

وقد كان هؤلاء النصارى يتوسلون بكل ذريعة لاجتذاب المجان ، وأهل اللهو وعشاق الخمور ، وفى طليعة ما يتذرعون به تجويد الشراب واختيار السقاة والمغنين والمغنيات وتهيئة ما يلزمه الشارب والماجن من وسائل التلذذ والطرب ، وربما كانت ابنة القس تدير الكأس على أحلامها ، أو راهبة الدير تبيع لهم الخمور ، وما أطيب الكأس من كف خود رعبوب . . . قال شهاب الدين العمرى فى الدير الأبيض من أديرة مصر :

وكأس المدام علينا تطوف ... بحمراء صافية كاللهب
يطوف بها من بنات القسو ... س باخلة الكف ليست تهب
مبتلة بين رهبانها ... لألحاظها فى حشانا لهب
مسيحية طلعت فى المسو ... ح، كصبح أطل وليل ذهب (١)

وربما جرت فى مجالس الخمرة أمور مما « يحسن » الظن عندها كما يقول ابن المعتز « فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر »، وقد يبلغ الفسق منتهاه فى غالب الأحيان ، فلا رادع للقوم من دين ، ولا وازع لهم من أخلاق ، يحتسون الخمور على أصوات العود والناى، وتبلغ الفوضى بهم غايتها ، فلا تجد إلا قبلا وعناقاً ، وانسان سوء « خلف » انسان ... قال جحظة فى دير الزندورد (٢)

سقياً ورعياً لدير الزندورد وما ... يحوى ويجمع من راح وغزلان
دير تدور به الأقداح مترعة ، ... بكف ساق مريض الجفن وسنان
والعود يتبعه ناى يوافقه ، ... والشدو يحكمه غض من البان
والقوم فوضى ترى هذا يقبل ذا ... وذاك انسان سوء خلف انسان (٣)

وحدث أن مر الشاعر الكندى المنبجى بدير مار ماعوث فاستحسنه ورأى غلاماً فى رهبانه جميلا يلثغ بالسين يجعله ثاء قال : « فشددت سميريتى إلى جانب الدير ، واشتريت شراباً من الرهبان ، وبت هناك منادماً لذلك الغلام . فلما أردت الرحيل أنشدته :

ومورد الوجنات من رهبانه ... هو بينهم كالظبى بين ليوث
ذى لثغة فتانة فيسمى الطا ... ووس حين يقول بالطاووث
حاولت منه قبلة فأجابنى : ... لا والمثيح وحرمة الناقوث
حتى إذا ما الراح سهل حثها ... منه المسير بكأسه المحثوث
نلت الرضى وبلغت قاصية المنى ... منه برغم رقيبه الديوث (١)

وإذا أردنا استقصاء ما كان يدور فى الديارات من تهتك وتطرح ومجون لعز الطلب واحتاج ذلك إلى كتاب فى أجلاد

(بغداد) شكرى محمود أحمد
مدرس العربية بدار المعلمين الابتدائية

(١) مسالك الأبصار ص ٣٨٣
(٢) كان دير الزندورد بالجانب الشرقى من بغداد ، وكانت أرضه مزروعة بالفواكه والأترج والأعناب . أما موقعه بالنسبة لخطط بغداد اليوم فيقع فى محلة الباوين والسعدون . وكان بستان الأرفلى ومدرسة الراهبات من ضمن أراضيه ، واليوم أصبحت محلة معمورة . وقرب تمثال عبدالمحسن السعدون كانت كنيسة للنصارى هدمتها أمانة العاصمة قبل عشرة أعوام تقريباً .
(٣) معجم البلدان ج ٥ ص ١٤٤

(١) مسالك الأبصار ص ٣٦٢ ومعجم البلدان ج ٥ ص ١٧٦

الخلان والزمان

بين أبى فراس والبارودى

للأستاذ محمد محمد الحوفى

— ٢ —

وبعد فلو أننا قدمنا ذلك الشعر باسم البارودى ، لم نتجن على الحقائق ، ولم نسىء إلى أحد الشاعرين : فإن هذه المعانى التى عرضناها لأبى فراس فى موضوع الصداقة — هى بعينها المعانى التى قالها البارودى ، والتى سنعرض شيئاً منها كذلك .

كيف اتفق البارودى مع أبى فراس فى الحكم على الناس ؟

وليس الجواب عن هذا السؤال عسيراً ، إذا عرفنا أن البارودى كان كأبى فراس — عبقرياً فى الحرب وفى السياسة وفى الشعر . حارب غير مرة فظفر ، ولجىء إليه عند الأزمات السياسية فصفى الماء المعكر ، وتعهد الشعر العربى فأجدَّ بعد أن نخر .

والناس كما أسلفنا — فى كل زمان يكيدون للنابهين كيداً ، ويتربصون بهم الدوائر حقداً ؛ والحق أن أبصر الناس بالناس هم العباقرة ؛ لأنهم هم الذين يتلقون حقدهم ، وتنكشف أمامهم خبايا نفوسهم .

فالبارودى إذ يتحدث عن الصحاب ، إنما يصدر عن تجربة .

ثم كان عصر البارودى مشجعاً بمحنه وفتنه على تميز المخلص فى صداقته من المخادع ؛ إذ كانت الفتن الداخلية السياسية على أشدها ، وكان المقربون من الخديو غرضاً يرميه الوشاة بخزعبلاتهم ، وكان بعض هؤلاء المقربين يشى ببعض ، فيتهم أحدهم الآخر بممالأة الشعب ، وتحريضه على الثورة ، أو حثه على إحراج الخديو ، وكان الإنجليز يتسقطون الأخبار ليعرفوا حركات الزعماء ونواياهم ، فكثرت الدسائس والوشايات واستطاع شانئو البارودى أن يدسوا عليه ، وأن يلقوا عليه مع سائر الزعماء تبعة الثورة العرابية .

ثم كان نفيه — كأسر أبى فراس — آخر محك للصداقة ، وأصدق معيار لمن يدعون الوفاء ، حيث تراجع عن صداقتهم المدعون ، وكشفت المحن ضمائر المستورين .

وليس يفوتنا هنا كذلك أن من أسباب كثرة الحساد للبارودى ، غلوه هو أيضاً فى الفخر ، وشدة غروره بنفسه وبنسبه ، وقد كان فى عصره كثيرون غيره ، يرون أنهم أعرق منه أصلا ، وأشرف محتدا ، فلابد أن يوغر صدورهم فخره .

وكما خبر أبو فراس الناس خبرهم البارودى حتى ملها الاختبار ، فرأى مودتهم كذاباً ، وقلوبهم ليست مثل ألسنتهم ، فيئس من العثور على صديق صدوق !

ولقد بلوت الناس فى أطوارهم ... وملت حتى ملنى الإبلاء
فإذا المودة خلة مكذوبة ... بين البرية والوفاء رياء
كيف الوثوق بذمة من صاحب ... وبكل قلب نقطة سوداء
لو كان فى الدنيا وداد صادق ... ما حال بين الخلتين جفاء
فانفض يديك من الزمان وأهله ... فالسعى فى طلب الصديق هباء

والناس أعداء فى الغيب ، ولكنهم عند الحضور صحب :

أنا فى زمان غادر ومعاشر ... يتلونون تلون الحرباء
أعداء غيب ليس يسلم صاحب ... منهم وإخوة محضر ورخاء
أقبح بهم قوما بلوت إخاءهم ... فبلوت أقبح ذمة وإخاء
وأشد ما يلقى الفتى فى دهره ... فقد الكرام وصحبة اللؤماء

وهذه نصيحة يوجهها إليهم عن تجربة :

بلوت سرائر الإخوان حتى ... رأيت عدو نفسى من حبيبى
فلا تأمن على سر صحابا ... فإنهم جواسيس العيوب

ويحرص البارودى على أن يعرفك أنه خبر الصحاب وجربهم ، فقلما يذكرهم إلا يذكر أنه ابتلاهم :

بلوت إخاء الناس دهراً فلم أجد ... أخا ثقة يرعى مغيبى كمحضرى

ويقول :

بلوت بنى الدنيا فلم أر صاحباً ... يدوم على ود بغير تكلف

ويقول :

بلوت بنى الدنيا فلم أر صادقاً ... فأين لعمرى الأكرمون الأصادق

ويعتبر البارودى كذلك شرفا له أن يحسد .

ليضنَ بي الحساد غيظاً فإنني | لآنافهم رغم وقيّ أكبادهم وقد
أنا القائل المحمود من غير سبة | ومن شيمة الفضل العداوة والضد
فقد يحسد المرء ابنه وهو نفسه | ورب سوار ضاق عن حمله العضد
فلازلت محسوداً على المجد والعلا | فليس بمحسود فتى وله ند

ونفسه تواقة إلى خل وفي يشكو له فيسمع ، ويحسن إليه فينمو إحساسه ويترعرع .

فمن لي وروعات المنى طيف حالم | بذى خلة تزكو لديه الصنائع
أشاطره ودى وأفضى بسمه | بسرى وأمليه المنى وهو رابع

وما أشد حاجة الإنسان إلى خلّ رضى ، يعاشره على سجية :

متى يجد الإنسان خلا موافقاً | يخفف عنه كلفة التحفظ
فإنى رأيت الناس بين مخادع | لإخوانه أو حاسد متغيظ

الدهر

قلنا إن والد أبي فراس خلفه في الثالثة ، فشب يتيماً يرى كلا يفخر بأبيه وينال حنانه إلا نفسه . أين أبي؟ ولماذا قتل وحده في الحرب دون آباء هؤلاء اللدات ، ولم أعجلته المنية قبل أن أملى به عيني ، وألمس عطفه على ؟ يا لك من دهر !!

وقلنا إن نفس أبي فراس كانت طموحاً عالية ، وإنه شمخ على أسرته وسائر الناس ، فكرهوا منه ذلك ، ولا سيما أنه ليس لديه من الأموال ما لدى غيره من الأمراء ، فانصرف عنه الناس إلى أقرانه من أسرته فأحس أن أخلاق الصحاب نفعية ، لا تصمد عند الشدائد ، وقوى هذا الإحساس حينما أسر فتفرق من حواليه مدعو صداقته ، وأمعن الحساد في شماتتهم به .

وما دام الدهر خلواً من الأخلاء والأوفياء ، مليئاً بكيد الحساد والشامتين ، فهو دهر ثقيل ، يلعنه صاحبه في كل مقال

ونقول هنا كذلك : إن أبا فراس نشأ فوجد ابن عمه سيف الدولة أمير حلب وهو فيها صاحب العز والغلب ، مهيب جانبه من الروم والعباسيين وسائر دويلات العرب . . . وأبناء العمومة في مرتبة واحدة يرى كل منهم نفسه نداً للآخرين ، له محامدهم ، وفيه أمجادهم .

ونظر أبو فراس إلى ابن عمه ، فرأى نفسه وإياه في مرتبة واحدة ، وقارن بين حاله وحال سيف الدولة فلمس فروقاً شاسعة : أمير ممالك يحتفى به ويخشى منه ، وأمير يتيم فقير ، لا سلطان له على الناس حتى يرهبوه ولعل أبا فراس فكر في فضائل سيف الدولة ، وأسباب سيادته على قبيلته ، فوجد الفضائل عنده هو أتم ، وأن سيف الدولة فيه من المعايب ما ليس في نفسه .

ولعله كذلك ذكر أن أباه — وقد كان عم سيف الدولة — كان هو الأحق بالإمارة من ابن أخيه ، فتقاليد الحكم أن يلي الملك أكبر رجال الأسرة وأقربها إلى أصولها .

وما دام والد أبي فراس كان أحق من سيف الدولة ، وما دام أبو فراس يرى في نفسه المثل العليا للشجاعة والكرامة والمجد — فلابد أن يكون قد حدث نفسه بأن تئول إليه المملكة ، بعد وفاة سيف الدولة .

أقرر هذا معتمداً على شعر أبي فراس نفسه ، ومستعيناً بسياق الحوادث التاريخية وإن لم نُصرح .

وما كان لإنسان عادى ، لا يترقب الملك أن يقول :

علىَّ طلاب العز من مستقره | ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب

أيكون للعز مستقر — عند الأمراء — غير الملك ، وإذا لم يكن الملك فلمَ يقول : « ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب » ، إنه يريد بمحاربة المطالب ، مقاومة الظروف وعجزه عن التربع على الإمارة في حلب ، ووقوف الحساد في سبيل غايته .

وما كان لغير طامع في الإمارة أن يقول :

يصان مهرى لأمر لا أبوح به | والدرع والرمح والصمصامة الخذم

إني أبيت قليل النوم أرقني | قلب تكاثف فيه الهم والهمم

وأن يقول :

ولو نيلت الدنيا بفضل منحتها | فضائل تحويها وتبقى فضائل
ولكن دهراً دافعتنى صروفه | كما دافع الدين الغريم الماطل

وأن يقول :

تطالبني بيض الصوارم والقنا | بما وعدت جدى في المخايل

* * *

على أن ما وقع من أبي فراس عقب موت سيف الدولة

يؤيد ما ذهبنا إليه من أن أبا فراس كان يحدث نفسه بالإمارة : فقد خرج الشاعر بحمص على أبي المعالي بن سيف الدولة ، وحاول أن يحل محله ؛ ولكن أبا المعالي وقر عويه هزماه ، ويقال إنه قتل في هذه المعركة وبعد :

فليس بدعا من أبي فراس أن يردد الشكوى من الدهر ، ويحقد عليه في كل قول ، بعد أن حاربه في أبيه ، وفي أصدقائه ، وفي أمانيه

* * *

وليس الذي لفتنا في شعر أبي فراس مجرد الحديث عن الدهر ، ولكنه تكرار هذا الحديث حتى ليصح أن نسمي شعره كله بالشعر الدهري ثم اتفاق كل هذه الأحاديث الدهرية على لمنة الدهر ، والثورة على صروفه وظروفه .

فترى أبا فراس يصور الدهر المدافع لطموحه مماطلا يدافع غريمه :

تطالبني بيض الصوارم والقنا … بما وعدت جدى في المخايل
ولكن دهراً دافعتني صروفه … كما دافع الدين الغريم الماطل

ويقول لسيف الدولة أول أسره :

وما أنا إلا بين أمر وضده … يجدد لي في كل يوم مجدد
فمن حسن صبر بالسلامة واعد … ومن ريب دهر بالردى متوعد

ويذكر أن أصحابه يوم أسره ، كانوا قد أشاروا عليه بأن يحجم فرفض وأن الدهر هو المسئول عن إخفاقه في هذا اليوم :

يقولون جاهد . عادة ما عرفتها … شديد على الإنسان مالم يعود
فقلت : أما والله ما قال قائل … شهدت له في الخيل الأم مشهد
ولكن سألقاها فإما منيـة … هي الظن أو بنيان عز مشيد
ولم أر أن الدهر من عدد المدا … وأن المنايا السود يرمين عن يد

ثم يحاول أن يثبت أمام طمنات الزمان ، وأن تصدق فراسته فيه ، فيقول :

وقور وأهوال الزمان تنوشني … وللموت حولي جيئة وذهاب
وألحظ أهوال الزمان بمقلة … بها الصدق صدق والكذاب كذاب

ويقول :

ومن ورد المهالك لم ترعه … رزايا الدهر في أهل ومال

وقد حالفته صروف الدهر حتى توهمت نفسه أنه لا يمتد لها ، لأنه ألفها :

لا أقتني لصروف دهري عدة … حتى كأن صروفه أحلاقي

ويقول في هذا المعنى أيضاً :

وخبرت هذا الدهر خبرة ناقد … حتى أنست بخيره وبشره

ثم يشرك معه بني حمدان في عدم المبالاة بالدهر :

نظرنا إلى هـذا الزمان بعينه … فهان علينا ما يشت وينظم

ولكنه بعد هذا التجلد للدهر والاستهانة به . يكرر التظلم منه . فالشيب عنده أهون رزايا الدهر :

وقلت الشيب أيسر ما ألاقي … من الدنيا وأيسر ما أداري

وهو في استعطاف سيف الدولة يعده جنة من ريب الدهر :

فقولا له يا صادق الود إنني … جعلتك مما رابني الدهر مفزعا

ويعجب أن ينكر عليه سيف الدولة شكوى الزمان :

أتنكر أني شكوت الزمان … وأني عتبتك فيمن عتب

ويستعطف سيف الدولة بأن حوادث الأيام جرحت قلبه :

زماني كله غضب وعتب … وأنت عليّ والأيام إلب
فلا تحمـل على قلب جريح … به لحوادث الأيام ندب

ثم يشكو تعاون سيف الدولة مع الدهر على اضطهاده :

فيا حكمي المأمول جرت مع الهوى … ويا ثقتي المأمول جرت مع الدهر

ثم يستضعف أبو فراس نفسه - على غير عادته - ما لم يعاونه أصدقاؤه على صد هجمات الدهر ، ولذا يتغاضى عن ذنوبهم ، لكيلا يذروه وحده أمام الدهر :

واعلم إن فارقت خلا عرفته … وحاولت خلا أنني غير واجد
وهل نافعي إن عضني الدهر مفردا … إذا كان لي منهم قلوب الأباعد

(البقية في العدد القادم) **محمد محمد الحوفي**

أدب العروبة فى الميزان

للأستاذ على متولى صلاح

– ٣ –

ليست علاقة الأستاذ إبراهيم دسوق أباظة باشا بالأدب قريبة ولا واهية وإنما هى علاقة قديمة وثيقة انحدرت إليه من آبائه وأجداده الذين كانوا يحتفون بالأدب ويحتشدون لأهله ويبذلون لهم المكرمات والمروءات بذل السماح . ولعل من أطرف ما يروى فى هذا الصدد خبر الغرفة التى أقامها الأستاذ إبراهيم دسوق أباظة باشا فى بيته بقرية « غزالة » لحافظ إبراهيم يلم بها بين الحين والحين فيجد العيش اللين ، والرزق الوفير ، والحياة الرتيبة ، والتى أطلق عليها اسم « غرفة حافظ » وجعلها حراماً على سواه ، وما زالت مغلقة إلى الآن لا يغشاها إنسان ؟

ولعل بعض القراء ما زال يذكر المقالات الطويلة والفصول الضافية التى كان يدبجها معالى الأستاذ فى جريدة « السياسة الأسبوعية » فى صدر حياتها وفى « السياسة اليومية » فى أول نشأتها بقلم يشهد له بالبلاغة والبيان ، وأنا أعلم أن شوقى كان يسعى إليه جاهداً بكل رواية من رواياته الأخيرة ويأبى إلا أن يهدى إليه أول نسخة تخرجها المطبعة ! ولعل الكثير من القراء لا يعرف أنه شاعر تلين له القوافى لأنه لم يجتمع له ديوان منشور ، ولأن أغلب شعره إما أن يكون معارضة لطيفة ، أو نكتة طريفة أو جواباً عن سؤال ، أو تزجية بشرى ، أو إرسال تهنئة ، وما إلى ذلك من مختصر القول ومقتضب الكلام ، وأنا أسوق إلى القراء نموذجاً واحداً منه يدلهم على مبلغ أصالته فى الشعر وعراقته فيه قاله فى تهنئة صديقنا الشاعر طاهر أبو فاشا على زواجه منذ أعوام قريبة فى قصيدة طويلة منها :

بنيت بالأمس سراً ... شحاً وبخلا وغدراً
هلا دعوت ضيوفاً ... لا يسألونك كثرا
غر ميامين جاءوا ... دمياط براً وبحراً(١)
إن شئت قدمت فولا ... جرى بدمياط ذكرا
« التابعى » (٢) طهاه ... فكان فى الصحن تبراً !

إلى أن قال فى ختامها : —

دفعت بالله مهراً ... أم كان شعرك مهراً ؟
أعطاك ربك ألفاً ... من البنين وعشراً
وصاغ منك ومنها ... صنوين : شمساً وبدراً

فكان أمراً طبيعياً أن ينعقد له لواء رياسة جماعة أدبية كل وكدها خدمة الأدب والأدباء « وبعث مجد الضاد وآدابها » كما يقول ، « وإحياء التراث الإسلامى والمفاخر العربية » كما يقول سكرتير الجماعة .

والتأمل فى منهاج هذه الجماعة وهو منهاج حافل حاشد كما صوره رئيسها وبعض رجالها يجد أن الجامعة لم تحقق أو لم تكد تحقق منه شيئاً ! فمن منهاجها « أن تحيى التراث الإسلامى » وهى لم تصنع فى ذلك شيئاً .

ومن منهاجها « تزويد المكتبة العربية بزاد متصل من الآراء الحرة الكريمة » وهى لم تزود المكتبة العربية بعد إلا بكتابها هذا الذى نحن بصدد الحديث عنه .

ومن منهاجها « النهوض بالفكر الإسلامى والبيان العربى » وهى لم تنهض بشىء من ذلك إلا طيفاً لا يكاد يرى !

ومن منهاجها « تقوية الصلات الفكرية والروحية والثقافية بين مصر والبلاد العربية » وهى لم تصنع فى هذا الصدد شيئاً أصلا ..

ومن منهاجها « أن تشعل فى الشعب روح النضال والانتصار وأن توحد له الأهداف والأغراض وأن تفسح له آفاق الحياة وأحلام المجد » ونحن نعرف أن ذلك لا يكون إلا بالأناشيد التى تبعث فى الشعب الحياة والطموح والعزة ، وبالروايات التى تعيد إليه سابق مجده ، وماضى تاريخه ، وتستنفره للجهاد فى سبيل استرجاعه وإعادته ، وبقصص البطولة والتضحية — والتاريخ المصرى ملىء بحوادثهما — تذكى فيه العزائم الواهية ، وتحيى منه موات الهمم . وما نرى جامعة أدباء العروبة فعلت من ذلك شيئاً

ولكن عذرها فى ذلك أنها لم يكد ينقضى على إنشائها إلا عام وهو — عندنا — عذر يشفع لها بذلك ، ولكننا ننبهها إلى ما أخذت به نفسها ، وما عاهدت الله والناس عليه وإنا لمنتظرون

على أننا نزيد على أن تضيف إلى منهاجها هذا أموراً هى عسية أن تحلها الصدر من منهاجها إن هى كانت جادة فى السعى لرفع

(٣) كان معاليه يومئذ يصطاف برأس البر ..

(٢) بائع فول شهير بدمياط

شأن الأدب والأدباء ، فعليها أن تعين رقيق الحال من الأدباء وتمدهم بما يمكنهم من طبع نتاجهم ونشره بين الناس ، وعليها أن تحيي الكنوز الدارسة من كتب الأدب العربي القديم وتعنى بتصحيحها وتنقيحها وإخراجها في ثوب قشيب فذلك أجدى عليها وعلى الأدب من ألف مهرجان ومهرجان . وعليها أن تعمد إلى أمهات الكتب الأجنبية — وبخاصة القصص الرفيعة — فتترجها إلى اللغة العربية فتزيدها ثروة وذخيرة . وعليها أن تسعى جاهدة لدى الحكومة لتقرر ما ينتجه كرام الأدباء في مكتباتها وفي مدارسها فينتفع الأدباء وينفعون ، أما أن يكون كل عملها الطواف هنا وهناك وإلقاء كلمات مبتسرة ينشئها بعض أصحابها وهم في القطار ثم تجمع ذلك في كتاب تذيعه على الناس دليلا على وجودها وسجلا لجهودها فذلك عمل ضحل قليل الغناء ...

وكتاب « أدب العروبة » الذي نحن بصدد الحديث عنه كله — إلا القليل — من عمل أعضاء جامعة « أدباء العروبة » والتأمل فيهم لا يجد بينهم واحداً من شيوخ الأدب وسدنته القدامى ، وكلهم لم يجاوز بعدُ مرحلة الشباب إلا الصديق الدكتور إبراهيم ناجي والصديق الأستاذ محمد مصطفى حمام فقد أوشكا أن يُجاوزاها !

ويتألف الكتاب من الكلمات والقصائد التي ألقيت في سبعة مهرجانات أقامتها الجماعة في القاهرة وبعض المدن لمناسبات متفرقة أو للتنويه بشأنها والتذكير بوجودها ، ويفتتح الأستاذ الرئيس كل مهرجان بكلمة منه مختصرة تشرح أغراض الجامعة وتنبه إلى رسالتها وأهدافها ، وتمهد القول لمن يلونه من الخطباء والشعراء ... ويجد القارىء في الكتاب للأستاذ الدكتور محمد وصفي نائب الرئيس سبع كلمات لكل مهرجان كلمة ، وفي كلام الرجل لازمة خاصة يتميز بها ، فهو يجنح جنوحاً قوياً شديداً تدفعه إليه طبيعته الخاصة حتى لا يملك عنه منصرفاً إلى الاستشهاد الدائم بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف ، وهذا حسن في ذاته ولكنه هو كل ما يصنع ! فهو يعمد إلى الآيات الكريمة التي تتصل بسبب قوى أو ضعيف إلى المناسبة القائمة ، ويجدّ في البحث والتنقيب عنها ، ثم يشرح معانيها التي احتوت عليها جميعاً ويسوقها معنىً معنىً حتى إذا استوفاها جميعاً ذكر نص الآية حتى ليخيل للقارىء أنه أتى بالآية استشهاداً لما قدّم من المعاني ومطابقة له والحقيقة أنه اهتدى إلى الآيات أولا وأعدها للقول وأخذ في تفسيرها مقدماً حتى إذا أتمّه جاء بالنص !

ولو أننا أخرجنا من كلامه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ما بقي بعد ذلك شيء ؟ فليس له وراء ذلك إنشاء أو ابتداع أو كتابة فهو إلى المفسرين أقرب منه إلى الأدباء ..

وعجيب أن يقول الأستاذ طه عبد الباقي سرور سكرتير الجماعة في الكتاب ثماني كلمات ليست بالقصيرة ثم إنك لا تكاد تجد بينها فرقاً يحس أو اختلافاً يشعر به ، فالكلمات متشابهة متماثلة حتى لو أنك وضعت أي واحدة منها تحت أي عنوان منها ما أحسست نبواً ولا قلقاً ولا انحرافاً ! وكلامه — في عمومه — كلام عام لا خاصة له وأكاد أقول لا معنى له ، فهو يسوق الكلام يجر بعضه بعضاً دون حساب ولا تمهل ولا أناة فيقول فيما أسماه « فلسفة الربيع » « والربيع عصر المودة والسلام والإخاء إذا انطبعت روح الإنسان بتلك المعاني . وعهد حروب ودمار وخصومة وبغضاء إذا ثار في الإنسان جانب من جوانب الإلتواء » فأي كلام هذا ؟ وأي شيء فيه يجده القارىء ؟ وما علاقته بفلسفة الربيع هذه ؟؟ وهو يقول كذلك إن الإنسان « إن شاء أحال الوجود نعيماً وهناء وسلاماً وإن أراد كان الوجود جحيما ورعداً وحرباً » وذلك كلام معاد قريب أين هو من الربيع وفلسفته ؟ وهو يقول مخاطباً القمر معدداً محاسنه « قد تمنى اسمك بنات حواء » وذلك إلى كلام العامة أقرب ، ويقول عنه إنه « يمين أقسم به الديّان » ونسى أن الديان أقسم أيضاً بالتين والزيتون ؟ ولكنه السجع الذي يريد التزامه فتنبهر أنفاسه وتخرج سجعاته قلقة نابية غير مستقرة .

وكلمات الأستاذ ملأى بالأخطاء اللغوية التي كنا نود لو تنزّه عنها سكرتير جماعة أدبية نريد لها النهوض والسير الحثيث والتقدم المطرد ، فهو يقول مقدماً الكتاب « هذا بعض تراثنا في عام » والتراث ليس نتاج الأحياء إنما هو ما خلف الأموات . ويقول عن الإنسان أن فيه معجزة كبرى « أودعها الله في روحه » والصواب أن يقول « أودعها الله روحه » . ويقول عن مهرجان القمر إنه « مهرجان النور والضياء » والله يقول « وجعلنا الشمس ضياء والقمر نوراً » . ويقول مخاطباً الإنسان « تنامُ

نشوة الخيام

للأستاذ حسن البحيرى

أدنِ منى ثغرك العذب وقبلنى ودعنى
أشرب النشوة من كأسى : رجاء … وتمن
فعسى بعد جراحات صباباتى وحزنى
أن يعيد الوصل أفراح ربيعى فأغنى

ضمنى وارو غليلى يا حبيبى من لماكا
اسنى لم يبق لى فى كرَب العيش سواكا
شفنى وجدى … ودائى … ودوائى فى هواكا
آه من نار بجنبىّ ورنها مقلتاكا

هات من جام الصبا بين عمار[1] ورفيف[2]
خمرة تذهل روحينا عن العيش الرفيف[3]
قبلما تعصف بالعمر أعاصير الخريف
فنروى زمن الأحلام بالدمع الذريف

عمرنا طيف تهادى من زوال لزوال
وليالينا ظلال تترآى فى ظلال
وأمانينا خيال حاكه وهم خيال
ومجالى عيشنا فى الدهر حال بعد حال

فارتشف راح الهوى من كأس حبى واسعد
لا تقل : لذة يومى أجتليها فى غدى
كم هفت فى العمر لذات وضاعت من يدى
هى بانت وأساها ظل فى قلبى الصدى

يا حبيبى أنا ضيعت ليالى الحوالى
فى دجى شكى وأطياف ظنونى وخيالى
حلم فى سانح الأوهام بالصفو بدا لى
ذبلت زهرة أيامى وحالى فيه حالى

لمحات من سنى تفر أمانى الكذاب
ضيعت عمرى فى الوهم وأودت بشبابى
فأنا فى بحرها اللجى موصول العذاب
لم أنل إلا الصدى منها وبراقَ السراب

ما كفانى أنها ضاعت ليالى سدى
بين أسداف وأوهام ضلال وهدى
ما الذى نلت — على الأيام — من دهر عدا ؟
غير برق فى أضاليل أمانى بدا ؟

(١) الريحان . (٢) السوسن . (٣) السريع .

ولا تشق » والصواب أن يقول « فانعم ولا تشق » بحذف الياء وليس هذا تطبيعاً لأن السجعة التى تليها « وسبّح بحمد ربك الأعلى » فيوقعه السجع فى هذا الخطأ غير المقبول . ويقول فى وحي الهجرة « إننا فى مطلع عهد جديد وسعيد يهاجر فيه العالم الإسلامى للمرة الثانية إلى حياة الحرية والعزة والقوة ومن نذره وبوادره هذا المهرجان » والنذر — وهى لغة الإنذار والإبلاغ — لا تكون إلا فى التخويف ومنه قوله تعالى « فكيف كان عذابى ونذر؟ » ويقول « ولقد كانت القبائل العربية قديماً تتناظر وتتبارز بالبيان واللسان » والمبارزة لا تكون إلا فى الحرب . ويقول متمماً هذا الكلام « فإذا غلب شاعر قبيلة شاعر القبيلة الثانية » والأولى أن يقول « فإذا غلب شاعر قبيلة شاعر القبيلة الأخرى » حيث لا ثالثة لهما . ويقول فى عيد الفاروق « فى مثل هذا الشهر من العام الماضى احتفل أدباء العروبة بعيد الربيع » والصواب أن يقول فى مثل هذا الشهر من السنة الماضية ، فالفرق بين العام والسنة لا يخفى على أديب .

كثير جداً أن تحتوى كلمات سكرتير جماعة أدبية على أمثال هذا الخطأ ، وأنا أرجو جاهداً من معالى الأستاذ الرئيس أن يراجع هذه الكلمات قبل نشرها وإذاعتها على الناس — وهو الأديب العالم المدقّق الذى لا يجوز عليه هذا الخطأ — حفاظاً على قدر هذه الجماعة وسمعتها بين الناس ؛ وصيانةً لعرضها أن يثلمه إنسان فشمر الفتى عرضه الثانى كما يقول إسماعيل صبرى

(المنصورة) على متولى صلاح

فأدر كأس شمول الصـــفو فالصفو يدال
والليالى لم يدم فيها لذى وصل وصال
كم أتاها قبلنا أنضاء أوهام وزالوا
لا همو داموا ... ولا بعض رجاء العمر نالوا !

صب من خمر ثناياك سلافاً وحـــباباً
وأذب لذة روحينا بكأسينا شراباً
واسقنى واشرب على شدو المنى تبراً مذاباً
حسبنا ما ضاع من ماضى ليالينا تبـــاباً

كم حبيبين أضاءا الروض فى حضن التصابى
بشباب حرك الطير إلى نجوى الشـــباب
فانتشى الزهر ... وهام النهر رقاص العباب
وهفا الغصن على مضجع أحلام عذاب

ثم غابا كنجوم الصبح من أفق الوجود
ما درينا أين قرا من دنى النأى البعيد
ذهبا فى غمرة الأيام كاللحن الشرود
أو كما تذهب فى الإعصار أنفاس الورود

شعلة النبراس فى حلكة آلام الحياة
تلتظى بين أعاصير الشجون العاصـــفات
يتلألأ نورها لمحاً بدنيـــيا النائبات
ثم تلقيه يد العُدم بوادى الذكريات !

يا حزيناً عاش من دنيـــاه فى بحر الدموع
تائهاً بين أواذى هـــلوع وولوع
حائراً فى غلس اليـــأس بخفاق وجيع
ضل عن شاطئه فى زورق الوجد المروع

كفكف الدمع على مافات من بيض الأمانى
وادفن الأنة فى النشوة واصدح بالأغانى
واغتنم ما غفلت عن صفوه عين الزمان
لا تصوح فى بوادى الوجد أزهار التدانى

حسبنا أن صبانا والهوى ملك يدينا
ما علينا لو نهبنا العمر سكراً ؟ ما علينا ؟
هاتها حتى يوافينا الردى فى سكرتينا
قبلما تذوى أزاهير الصبا من جنتينا

من رأى ماذا وراء الغد فى لوح الغيوب ؟
أو درى ما خطت الأقدار فى سفر الخطوب ؟
كلنا نخبط فى تيه من الشك المريب
خبط عشواء ضلول ... فى دجى قفر جديب !

لا يرد الشجو من أعمارنا ما ذهبا
لا ! ولا يمحو الأسى من غيبنا ما كتبا
فانس ما ولى ... ودع للغيب ما قد حجبا
واحسها صرفاً ... وأغرق فى طلاها النصبا !

(حيفا) حسن البحيرى

تعقيبات

فارس الخورى الشاعر :

استفاض الحديث فى مصر وفى الشرق العربى ، بل فى العالم أجمع عن فارس الخورى ممثل سورية فى مجلس الأمن ورئيس المجلس فى دورته الحالية ، واستفاض الثناء عاطراً فى جميع الدوائر على ما أبدى فى هذه الرياسة من أصالة وكياسة ، وشهدت البرقيات التى أذيعت فى العالم بأنه « خير من رأس المجلس إلى الآن ، وأنه يدير دفة الاجتماعات بدقة فائقة تتلخص فى التقليل من الكلام والإكثار من العمل وحسم الأمور حتى استطاع أن يعمل فى ثلاثة أسابيع ما لم يستطعه أحد من رؤساء المجلس السابقين .. » .

وفارس الخورى — بارك الله فى حياته — فى الثامنة والستين من عمره الآن ، وهو من الرعيل الأول من رجال الوطنية فى سورية . وكان محامياً فى دمشق ، وكان أستاذاً فى كلية الحقوق ، وكان وزيراً مراراً ، ورئيس وزارة ، ورئيس المجلس النيابى ، ولكن قلّ من أبناء هذا الجيل من يدرى أن هذا السياسى المحنك كان فى مطلع حياته من الشعراء النابغين والكتاب المبرزين ، وأنه فى مطلع هذا القرن ، أى منذ أربعين عاماً ، كان يملأ صحف مصر وسورية بمنظوماته وكتاباته ، وإنى لأذكر له من ذلك تخميساً لنونية ابن زيدون المشهورة نظمه فى سنة ١٩٠٦ وفيه يقول :

الطيف فى النوم يرضينا إذا عبرا
إن عزت العين صرنا نطلب الأثرا
لا تعجبوا إن صبرنا نحمل القدرا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

نرضى الهوان بديل العز أكمله   والجسم ينحل سقما من تحمله
ونرتضى وشلا عن فيض جدوله   أما هواك فلم نعدل بمنهله
شرباً وإن كان يروينا فيظمينا

أعرضت عنا وأعرضنا على وصب   نكتم الناس ما فى القلب من لهب
فما اتخذنا تجافينا بلا سبب   ولا اختياراً تجنباك عن كثب
لكن عدتنا على كره عوادينا

ضاقت على رحبها الدنيا فلا سعة   تحوى فؤاداً وأحشاءاً مقطعة
نأسى إذا الشمس جازتنا مودعة   نأسى عليك إذا حثت مشعشعة
فينا الشمول وغنانا مغنينا

لاشىء يسكن شيئاً من بلابلنا   ولا نرجى عزاء من وسائلنا
ظمائن الأنس شالت عن منازلنا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيما ارتياح ولا الأوتار تسلينا

وفى سنة ١٩٠٥-١٩٠٤ قامت الحرب بين روسيا واليابان ، وحدث فيها ما حدث من الوقائع والفظائع ، ومنيت فيها روسيا بهزيمة منكرة لم تكن فى الحسبان ، فاتخذ فارس الخورى من مشاهد تلك الحرب الضروس موضوعاً لملحمة شعرية تتألف من أربع قصائد ألم فيها بالأسباب التى دعت إلى إشهار تلك الحرب وذكر المعارك والمواقع البحرية والبرية التى جرت بين الصفر والبيض ، وفتح للانفعالات النفسانية والتخيلات الشعرية مجالا رحباً فى الوصف حتى جاءت تلك الملحمة مزيجاً من التقرير التاريخى والخيال الشعرى ، ولما كان ولى عهد روسيا يومذاك قد ولد أثناء تلك الحرب فقد ختم ملحمته متوجهاً إليه بهذه الأبيات :

ها أنت تنمو فى رعاية والد   حان يذود السوء عنك ويطرد
والبعض من أبناء جيلك لا أب   يحنو عليهم إن بكوا وتنهدوا
آباؤهم سقطوا بساحات الوغى   ليوسعوا لك دولة ويمهدوا
فإذا نموا وملكت فارفق ذاكراً   حق الذين على ولاك استشهدوا
وعساك تنشأ عادلا لا تدعى   أن الجميع لأجل عرشك أوجدوا
فالملك جسم والعدالة درعه   درع بمحبوك الحديد مسرد
والملك بستان أعز سياجه   عدل به ريح المخاوف تركد
يتوقع الإصلاح منك وليتنا   نحيا لنعرف ما يجىء به الغد

ولقد تمت الأمنية للشاعر ، فعاش — بارك الله فى حياته — حتى رأى ما جاء به الغد ، وعلم ما كان من مصير القيصر وولى العهد ، فتغيرت الدنيا وتبدلت الأوضاع ، فقامت دولة مكان دولة وظهرت شريعة على أنقاض شريعة ، ولكن غريزة الوحش فى الإنسان لم تتغير ، فما زال يستعمل نابه وظفره فى قتل أخيه

الإنسان ، وماذا كانت تلك الحرب « الروسية اليابانية » أيها الشاعر إلى جانب ما شاهدت ورأيت بعد ذلك من أهوال حربين عالميتين لا تزال آثارهما ماثلة للعيان ، أنت اليوم أيها الشاعر رئيس لمجلس الأمن ، فقل لأندادك فى ذلك المجلس من ممثلى الدول : أحقاً أنتم أيها الإخوان حراس الأمن ، أم مبررون للظلم وأن الحقيقة المرة هى كما يقول شوقى :

وعصر بنوه فى السلاح وحرصه ... على السلم يجرى ذكرها ويدير
ومن عجب فى ظلها وهو وارف ... يصادف شعباً آمناً فيغير
ويأخذ من قوت الفقير وكسبه ... ويودى جيوشاً كالحصى ويمير

شيوخ وشبان ...

قال لى الأستاذ العقاد : « إننى لا أفهم معنى لهذا الكلام الذى يقال عن الأدباء الشيوخ والأدباء الشبان ، وإنى لأعجب لفئة من الشبان يتهمون الأدباء الشيوخ بأنهم يظلمونهم ويسدون أمامهم باب الشهرة والظهور ، ويصورون المسألة على أنها حزازة بين الفريقين ، وعداوة بين الطائفتين ، إلى آخر ذلك الكلام الذى يثار ويقال ، والواقع أنه ليس هناك أدب شيوخ وأدب شبان ، وإنما هناك أدب قوة وأدب ضعف ، فالقوة هى عامل الظهور والشهرة ، وضمان البقاء والخلود ، ولن يتأتى هذا إلا بالدراسة والاطلاع وبذل الجهد فى ذلك إلى آخر ما تحتمله الطاقة ، ولكن إخواننا الشبان يحسبون أن من الكفاية فى إدراك هذا قراءة كتاب أو كتابة مقالة فى صحيفة ، وهذا هراء فى التفكير ، وهراء فى التقدير .. » .

« لقد كنا شباناً ، فما وجدنا من أخذ بأيدينا ، أو أفسح لنا الطريق ، ولكننا صمدنا وشققنا طريقنا بدافع القوة والجهد ، ولا زلنا إلى اليوم على هذا ، فأدباء الشيوخ أشد شغفاً بالقراءة والدراسة وبذل الجهد ، وهم يسيطرون على الحياة الأدبية لأنهم يواجهون الحياة الأدبية بما تستحق من حشد القوة وطول الصبر وخير للأدباء الشبان أن يدركوا هذا ، وأن ينصرفوا إلى تقويم شخصياتهم ، وأن يدخروا لأنفسهم قوة من المحصول الثقافى يمكنهم أن ينالوا بها الشهرة التى يريدون .. » .

وإنى — وأنا من فريق الشبان — لأوافق الأستاذ الكبير على ما قال ، فالقوة هى ضمان الشهرة والبقاء ، فإذا ملكها الشبان فلن يكون الشيوخ عائقاً أمامهم ، ولكن يظهر أن إخواننا الشبان لا يدركون المسألة على حقيقتها ، ولا يحبون أن يدركوها على حقيقتها ، ويحسبون أن فى استطاعتهم الصعود إلى القمة بخطوة قدم ، ويحسبون أن هؤلاء الشيوخ قد بلغوا ما بلغوا من المجد والشهرة بمثل هذه الخطوة ! !

كلا أيها الإخوان ...

لقد حدثنى الأستاذ المازنى قال : لقد قرأت كتاب الأغانى فى مطلع حياتى ، وقد عمدت إلى فك أجزائه إلى ملازم ليسهل علىّ حملها أينما سرت ، وقد عنيت أثناء القراءة بتصحيحه وإكمال القصائد التى فيه ، ونسبة الأبيات المجهولة إلى قائلها والاستدراك على تراجم الشعراء ، وكنت أكتب هذا كله فى ورق أبيض وألحقه بالمطبوع ، ثم جلدت الكتاب فكان فى ضعف حجمه ، وكانت هذه النسخة عزيزة على نفسى ، ولكنى فقدتها فى محنة من محن الدهر ، فأورثتنى حسرة لا تزال عالقة بقلبى إلى اليوم .

حدثنى الأستاذ المازنى بهذا الذى صنعه فى مطلع شبابه ، وكنت منذ أيام أتحدث إلى أحد الشبان الأدباء عن كتاب الأغانى هذا فشمخ على قائلا إن من العبث ضياع الوقت فى كتاب الأغانى وغيره من تلك الكتب القديمة البالية التى أصبحت لا تجدى ...

مرة أخرى أقول لكم : كلا أيها الإخوان ، إن الأمر أشق مما تقدرون ، فاصرفوا هذا التمرد إلى ما يجدى من الجهد النافع .

سؤال :

فى العدد السابق من الرسالة قرأت فى مطلع المقال الخامس من تلك السلسلة التى يدبج حلقاتها الأستاذ على الطنطاوى بعنوان « على ثلوج حزرين » ما يلى :

« أقامت ليلى فى دار أسعد شهرين محمولة على الأكف ، مفداة بالأرواح ، قد هيئت لها كل أسباب الرفاهية ، وأحيطت بكل مظاهر الترف ، وسيق لإسعادها كل ماوصلت إليه الحضارة وأبدعه العقل ، فلا ترى إلا جميلا ، ولا تشم إلا طيباً ، ولا تسمع

الأدب والفن في أسبوع

أدب الأعزاء :

لقد بلغت قضيتنا الوطنية مرحلة دقيقة خطيرة ، وأنا أكتب هذا يوم الثلاثاء الذى حدد لاستئناف النظر والمناقشة فيها ، وقد ظهر من اتجاهات مندوبى بعض الدول فى الجلسات الماضية أن الأمر لا يجرى على مقتضى الحق والعدل ، وأن مدّ الدعاية وأمواج الحجج تتناثر عند صخور مجلس الأمن التى تمثل الأغراض الاستعمارية وما يتصل بها من المصالح المشتبكة .

وقد أدركنا أن أكبر جهادنا هو العمل داخل بلادنا ، فدعا بعض الزعماء وقادة الرأى إلى عدم التعاون مع أعدائنا ومن يعاونهم ، وتوثيق العلاقات مع الذين يناصروننا ، وقد شعر الجميع بالارتياح لما فعلته الحكومة إذ منحت بولندا مهلة ستة أشهر بعد الميعاد المحدد لدفع ثمن الأقطان المبيعة لها من مصر . وجاء فى بيان لحافظ رمضان باشا بالأهرام إلى أبناء وادى النيل : « أريد أيها الواطنون الأعزاء أن نجابه الحقيقة وننظر إلى مصلحتنا دون أى اعتبار آخر وألا نمد أيدينا ولا نتعاون إلا مع الدول التى تناصرنا فى قضيتنا أمام مجلس الأمن » وجاء فى حديث له بأخبار اليوم : « ونحطم (قوقعة) الخوف التى وضعتنا فيها سياسة بريطانيا فننشىء علاقات وثيقة ثقافية وسياسية بكل الدول التى أعانتنا فى مجلس الأمن ، فنوفد إليها كتابنا ، ونشجع شبابنا الذين يطلبون العلم فيها » .

ومن التصرفات الموفقة فى هذا الصدد ما صنعه الأستاذ على الغاياتى إذ رد الوسام البلجيكى الذى كان يحمله إلى وزير بلجيكا المفوض فى مصر ، على أثر موقف التحيز الذى وقفه الممثل البلجيكى مع أمثاله فى مجلس الأمن ضد القضية المصرية .

أريد أن أخلص من هذا كله إلى أمر يدخل فى هذا الباب الأدبى ، أريد فى هذا الظرف الحرج أن نقطع علاقاتنا الأدبية والثقافية بالإنجليز ومن يساعدهم ضدنا فى مجلس الأمن وفى غيره وننشئ هذه العلاقات أو ننميها مع الدول التى تناصرنا .

حذار أن تقول ما شأن الثقافة والأدب بالخصومات السياسية والمنازعات الوطنية ، فنحن الآن فى انفعال شديد وثورة عنيفة لحريتنا وكرامتنا ولا نستطيع أن نسمع هذا الكلام ، وقد ورد فى الأنباء الأخيرة أن صحفاً فى لندن وباريس توجه حملة من السباب والشتائم إلى المستشرقين البريطانيين والفرنسيين لمقالات نشرتها لبعضهم بعض الصحف العلمية والأدبية يشيرون فيها بوجوب اتباع سياسة أميل إلى التسامح مع الأمم العربية ، ونحن فى موقف المدافع عن حريته وكرامته ، فأحرى بنا أن نضحى حتى بالفائدة الفكرية التى تتوقع من استمرار اهتمامنا بآداب أعدائنا

أحدد ما أرى إليه بألا تنشر الصحف والمجلات فى هذه الآونة ، آونة جهادنا الحاضر ، مترجمات ولا دراسات ولا أى شىء آخر من آداب تلك الأمم . وأنا لا أنكر فائدتها وروعة كثير منها . ولكن يجب أن ننظر إلى الحقائق الآتية :

١ — الأدب الحر لا يتفق مع إهدار الحرية والكرامة ولا يجوز أن نرضع أدبنا من أثداء الذين يتعاونون على محاولة قتل حريتنا وكرامتنا ، ويجب أن نشعرهم بتقلص قيمتهم الأدبية عندنا نتيجة سوء سياستهم معنا .

٢ — البلاد فى حاجة إلى أقلام الذين يبذلون أكبر جهودهم فى تلك الآداب ، ليكتبوا فى مسائلها ومشاكلها بعد أن يعودوا إليها بأفكارهم وعواطفهم ، وتكون هذه فرصة حسنة للشعور

إلا ساراً ، ولا تأكل إلا لذيذاً ، ولكنها لم تكن سعيدة ، ولم تر حسن ما هى فيه ، لأنها افتقدت النور الذى ترى به جمال الدنيا حين افتقدت الحبيب » .

وأنا أحب أن أسأل الصديق الفاضل : ما دامت ليلى فى هذه الحالة النفسية « لم تر حسن ما هى فيه » إذن كيف كانت « لا ترى إلا جميلا ، ولا تشم إلا طيباً ، ولا تسمع إلا ساراً ، ولا تأكل إلا لذيذاً ؟ » .

هذا السؤال الذى بدا لى ، وإنى لفى انتظار الرد من الصديق الكريم .

« الجاحظ »

بذاتيتنا ، والتأمل فى أنفسنا ، والعيش فى محيطنا وتركيز أدبنا الذاتى وتنميته وتوفيره .

٣ — يجب أن يكون العمل الوطنى السلبى شاملا لجميع النواحى ، فلا يتخلف فيه الأدب . وفى ذلك تقوية للروح الوطنية وإشراع لشعور العزة والكرامة .

مناهج اللغة العربية :

كانت وزارة المعارف قد ألفت لجنة لدراسة وسائل النهوض باللغة العربية والعمل على توحيدها فى مصر والأقطار الشقيقة . وقد انتهت هذه اللجنة من مهمتها ووضعت تقريراً سيكون موضع نظر المؤتمر الثقافى الذى سيعقد بلبنان فى اليوم التالى لصدور هذا العدد من الرسالة

وقد بين ذلك التقرير أهداف تعليم اللغة العربية فيما يلى :

(١) أن نجعل الطلاب قادرين على القراءة الصحيحة فى سهولة ويسر وأن يفهموا ما اشتملت عليه الكتب من أفكار ومعان

(٢) تمكينهم من التعبير عما يجول فى نفوسهم ويقع تحت حواسهم بعبارة عربية صحيحة

(٣) أن تكون دراسة العربية وسيلة صحيحة للثقافة وتوسيع المدارك وتنمية الذوق السليم وتزويد الطالب من المعلومات القيمة لا أن تكون محض دراسة لألفاظ وتراكيب ومفردات عمادها الزينة والزخرف الشكلى

(٤) أن يتصل الطلاب اتصالا وثيقاً بالحياة الأدبية والعلمية المحيطة بهم وأن يسايروا النهوض الأدبى الحديث

(٥) أن تكون الدراسة مثيرة لروح الشوق إلى القراءة والاستزادة من الثقافة والوقوف على ما جاء به الكتاب والمفكرون فى العصور المختلفة

ويقول التقرير « إن مناهج قواعد النحو والصرف والبلاغة أكثر مما يحتاج إليه الطلبة ولا تلائم استعدادهم ولا تنهض بتقويمهم وإنه لو اكتفى من القواعد بما هم فى أشد الحاجة إليه مع كثرة المران عليه كان أولى »

والواقع أن أصل الداء فى المناهج ، فنهج الأدب الحالى — غير صالح ، فالطالب فى السنة الأولى الثانوية يبدأ دراسة الأدب ببحث طويل فى معنى الأدب والأسلوب الردىء وغير الردىء ، وهو يحفظ من ذلك ما يلقنه الملمون من العبارات التى لا يفهم معناها مهما بذل المعلم من الشرح والإيضاح ، وفى السنة الثانية يدرس العصر العباسى الثانى ، فيقال له إن النهضة العلمية التى كانت فى صدر الدولة نضجت فى العصر الثانى وأثرت فى الأدب ، وهو لا يعلم شيئاً عن هذه النهضة لأنه سيدرسها فى السنة الثالثة ! ويقال له إن الكتاب استعملوا الجناس والطباق وغيرهما من المحسنات البديعية التى سيدرسها فى السنة الرابعة ! ويشغلون الطالب بالمعلومات التاريخية الكثيرة عن الأدب نفسه ، فيحفظ النصوص كما يحفظ شرحها دون فهم حتى للشرح ، ليدون ما حفظ فى ورقة الامتحان .. وترى أسئلة الامتحان فيهولك منها سؤال فى النقد أو الموازنة تراه أعلى من مستوى الطالب العقلى .. مع أن الأمر أهون مما تظن ، فالطالب يحفظ الإجابة عن ظهر قلب !

وهذه أمثلة يسيرة نسوقها إلى المؤتمر الثقافى وهو يتهيأ للانعقاد ، لننبه إلى أن « القدر المشترك » فى التعليم بجميع المدارس العربية ، ليس وحده الجدير بالبحث ، بل يجب الاهتمام أيضاً بنوع القدر ومقدار نفعه وصلاحيته . ويجب أن توضع المناهج المصرية خاصة موضع التفنيد ، لأن أكثر الشقيقات تتجه إليها وتأخذ بها ، ونخشى أن يتكون « القدر المشترك » من معظمها .

المساهر :

قرأت فى كتاب « أبو الهول يطير » الذى أخرجه أخيراً الأستاذ محمود بك تيمور ما يلى :

« تضم مدينة نيويورك وحدها سبعمائة مبنى بين مسرح للتمثيل ودار للسينما إلى جانبها ثلاثمائة وألف من أندية الليل تلك التى يسمونها بالفرنسية (الكباريهات) ولعلنا لا نخطئ إذا سميناها المساهر »

وكلمة « المساهر » هذه عذبة خفيفة وتنطبق حقاً على هذه الأندية الليلية (الكباريهات) التى يسهر فيها الناس ليستمتعوا بمختلف ألوان اللهو والمرح من رقص وغناء وموسيقى وغيرها وسيجرى المسهر على اللسان كما جرى المسرح والمرقص

وقد ذكرنى ذلك بما كان قد كتبه الزميل « الجاحظ » فى

تعقيباته بصدد وضع الألفاظ للأشياء والمعاني المستحدثة ، إذ قال على ما أذكر إن الأمر في وضع الألفاظ ليس بمجرد العثور عليها بل هو الاهتداء إلى الكلمات التي تصلح للاستعمال وتشق طريقها في الحياة بأقلام الكتاب والشعراء . والحق ما قال .

حول السجل الثقافي :

كتب إلى أديب ظريف بتوقيع « البسام » يقول :

« قرأت ما كتبته عن السجل الثقافي فأكبرت هذا العمل الجليل الذي شرعت وزارة المعارف تقوم به ، وهو إصدار سجل سنوي يصف مظاهر النشاط الثقافي خلال عام ويبين اتجاهات هذا النشاط ومراميه . ولا شك أن هذا السجل سيكون له من الأثر والشأن ما ذكرت ، ولكني وقفت عند نقطتين في هـذا الموضوع : الأولى في قولك « وعمل هذه الإدارة تسجيل مظاهر النشاط الثقافي في البلاد من كافة نواحيه عدا الجانب الذي تضطلع به معاهد التعليم وفق برامجها الرسمية » وبما أن السجل السنوي أول ما تهتم به الإدارة المنشأة كما ذكرت ، فمعنى ذلك أنه سيهمل فيه الجانب الذي تضطلع به معاهد التعليم وفق برامجها الرسمية ، فلم هذا ؟ ولم لا يكون السجل شاملا للنشاط الثقافي بمعاهد التعليم ؟ وقد قلت إن الغرض الأول منه تعريف ضيوف مصر والمهتمين بشئونها من الأجانب المكانة التي بلغتها مصر من الثقافة العامة . أفليست المعاهد الرسمية مما يهمنا التعريف بما بلغته من المكانة الثقافية ؟

« النقطة الثانية هي ما يفهم من سياق الكلام وعلى الأخص العبارة السابقة التي بينت فيها أول غرض من السجل : (تعريف ضيوف مصر ... الخ) من أنه سيكون مقصورا على وصف النشاط الثقافي وبيان اتجاهاته ومراميه في مصر فحسب ، فلا يشمل سائر البلاد العربية ، مع أن الوحدة الثقافية العربية هدف يرى إليه الجميع ، بل هي واقعة فعلا من قديم العصور ، وهي أقوى لبنة في بناء الجامعة العربية ، وإني لأستبعد أن تغفل ذلك وزارة المعارف وهي التي تعمل على تنمية التعاون الثقافي بينها وبين الشقيقات العربيات ، بل أقول بصراحة أكثر إني أشك في صحة ما ذكرت في هذا الصدد ... فهل أنت واثق منه ؟ وإذا كنت كذلك فما رأيك ؟ »

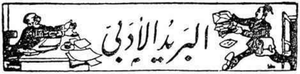
وأقول لك أيها « البسام » إنني لم أكن إلا مقررا للواقع الذي وقفت عليه وموضحا للفكرة التي قصدت إليها وزارة المعارف من السجل الثقافي الذي تعمل في إعداده ، وأنا واثق من كل ما ذكرته . وقد ارتحت إلى وجاهة اعتراضك رغم ما نعمدته من المماكسة بين « العباس » و « البسام »

ولا إخال وزارة المعارف غافلة عما أثار ذلك الاعتراض ، ولعلها تنظر إلى الموضوع من وجه غير الذي ننظر منه إليه ، فلست أملك مع هـذا إلا أن أدع الأمر لأهل الاختصاص في الوزارة ليجيبوا بما عندهم

تصويب :

في العدد الماضي جاء عنوان الموضوع الأول في هذا الباب « اجتراء » وصحته « اجترار » .

« العباس »



المنشيء والحاسب ، أبو حيان والحريري

قرأت فى الرسالة الغراء (٧٣٧) كلمة الأستاذ (الجاحظ) : (الكاتب المنشيء والكاتب الحاسب) وما رواه فيها من قول للدكتور زكى مبارك . ولقد أنصف الأستاذ الجاحظ ، وجار الدكتور مبارك — وإن لم يكن الظلم من شيمته — بما أراد أن يعطى (ابن الحريرى) أكثر من نصيبه ، وحسبه نصيبه . وفى (الإمتاع والمؤانسة) حديث عن تينك الصناعتين ورد فيه كلام لرجل اسمه (ابن عبيد) نبح فيه البلاغة والمنشئين والمعلمين والنحويين ، وعظم وكبر صنعة الحساب . وقد فرفر أديبنا العبقرى أبو حيان قائله فرفرة ، وفند باطله ، وأعلن من فضائل البلاغة والإنشاء ما أعلن وأغلب الظن أن صاحب (المقامات) أطلع على ذلك الحديث فنتش أشياء من معانيه ومن ألفاظه قال ابن الخشاب البغدادى فى رسالته فى نقد (المقامات) :

« وقد كان ابن الحريرى (عفا الله عنه) مكباً عليها ، صارفا مدة مهله فيها ، ينقح فيها اللفظة بعد اللفظة ، ويستشفها فى كل لحظة ، فهى بنت عمره ، وبكر دهره . ولقد خطف أكثرها من مواضع ، يدل تهديه إليها على فضل بارع . ولم يكن (رحمه الله) مدفوعاً عن فطنة ثاقبة ، وغريزة فى التلفيق مطاوعة مجاوبة » .

وان يقلل ذاك النتش من فضل (أبى محمد) وان يصغرهذا الخطف من مقداره . يقول أبو حيان فى كتابه :

« ولما عدت إليه (إلى الوزير) فى مجلس آخر ، قال : سمعت صياحك اليوم فى الدار مع ابن عبيد ، ففيم كنتما ؟ قلت كان يذكر أن كتابة الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالملك ، والسلطان إليه(١) أحوج ، وهو بها أغنى(٢) من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير ، فإذا(٣) الكتابة الأولى جد ، والأخرى هزل » .

« قال : ... فما كان الجواب ؟ قلت : ما تام من مجلسه إلا بعد الذل والقماءة ، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكلف ، والشمس بالكسوف ، وانتحل الباطل ونصر المبطل ، وأبطل الحق وزرى على المحق ... » .

ومما قاله أبو حيان لابن عبيد : « وكفى بالبلاغة شرفاً أنك لم تستطع تهجينها إلا بالبلاغة ، ولم تهتد إلى الكلام عليها إلا بقوتها ، فانظر كيف وجدت فى استقلالها بنفسها ما يقلها ويقل غيرها ، وهذا أمر بديع وشأن عجيب ... » .

والحديث التوحيدى المذب هو فى الجزء الأول من (الامتاع والمؤانسة) فى الصفحة السادسة والتسعين وما بعدها .

السهمى

(١) قلت : ربما كانت (إليها) .

(٢) قلت : اليقين انها (أعنى) بالعين المهملة لا بالغين المعجمة وإن كانت من الشاذ ، وفى كتاب سيبويه : (وهم ببيانه أعنى) وقد ذكره الزمخشرى فى (المفصل) وفى (الأساس) .

(٣) عندى أنها (فإن) .

تصويب :

جاءت همزة هذا المصدر (الائتمام) فى الكلمة (فعلاء) فى (الرسالة الغراء) ٧٣٧ — همزة قطع ، وهى همزة وصل .

إلى الأستاذ (الجاحظ) :

أنا أذكر أن فى الكتاب الجليل (الفرج بعد الشدة) للقاضى التنوخى قصة وقعت لبعض وزراء العهد العباسى الأول مع كاتب متعطل ركب معه حراقته فى دجلة ... فيها تصنيف الكتاب وصفاتهم وما ينبغى لكل منهم ، ولم يقتصر فيها على الكاتب المنشيء والكاتب الحاسب ، بل عدد أنواعاً كثيرة وساق أوصافاً جمة ، وليس تحت يدى الكتاب حتى أدل على موضعها ، فليرجع الأستاذ (الجاحظ) إن شاء إليه . يجد فيها ما يضيفه إلى (تعقيباته) ، ويضمه إلى حسناته .

(على)

الخلان والزمان :

فى العدد (٧٣٦) من الرسالة الغراء مقال بعنوان (الخلان والزمان) للأستاذ الحوفى لفت نظرى فيه أخطاء وقع فيها الكاتب فى روايته لأبيات الشاعر الأمير أبى فراس ... فرأيت إتماماً للفائدة المرجوة من هذا الموضوع الجليل أن أنبه إلى مواضع تلك الأخطاء وأن أرجع الرواية إلى أصلها .

١ — روى الكاتب أن أبا فراس قال :

منعت حمى قومى وسدت عشيرتى ... وقلدت أهلى من هذى القلائد

وصحة رواية الشطر الثانى هى :

وقلدت أهلى غر هذى القلائد



قصة إسلامية :

شيخ الأندلس

منقولة عن الانجليزية

بقلم الأديب وهبي إسماعيل حقي

(تتمة)

ثم إن الرجل الغريب داف إلى الحديقة بعد أن طرق الباب بيد مرتعشة طرقاً مضطرباً ، ولم يتمهل حتى يؤذن له ، وأسرع إلى حيث الشيخ يتوضأ لصلاة المغرب — وقد ارتسمت على صفحة وجهه دلائل الخوف وعلامات الفزع — فركع بين يديه ، وظل الكلام يتعثر في حلقه لحظة ، ثم استطاع أخيراً أن يتمتم بهذه الكلمات المتقطعة المضطربة :

— أيها الشيخ الرحيم ... إنى غ ... غريب عن هذه الأوطان ... وأنا الآن ... بعيد عن أهلى وعشيرتى ... و .. و ...

فقال له الشيخ :

— اعتدل فى جلستك يا بنى اوتريث قليلا حتى تهدأ أعصابك ويعود إليك اطمئنانك ، فأنت الآن فى بيتى ، وسنحول بينك وبين كل مكروه ، فلا تخف ، وقل ما تريد ...

— ارحمنى بربك ! اسبل علىّ ستراً من حمايتك بمكانة محمد عندك ، إنى برىء مد يدك لمعونتى ... لجأت إليك ، فكن بى رحيما ...

هزت كلمات الرجل أوتار قلب الشيخ إدريس ، وتأثر بالغ الأثر لهذا الغريب الذى يذوب قلبه فرقاً وقال له :

— إنك آمن الآن يا بنى ! فاطمئن ولا تخف ، فإن المسلم

وهو أوضح وأفصح فقد جاء مفسراً لبيت قبله هو :

فإن عدت يوماً عاد للحرب والندى ... وبذل الحلى والجدا أكرم عائد

ثم عطف فقال :

منعت حمى قومى وسدت عشيرتى ... وقلدت أهلى غر هذى القلائد

٢ — روى قوله :

(ومنها) نرى أن التارك محسن ... وأن خليلا لا يضر خليل

وصحة هذا البيت هكذا :

(وصرنا) نرى أن المتارك محسن ... وأن خليلا لا يضر (وَصول)

يقول : أصبحنا فى زمن نرى فيه أن الصديق الذى لا يضر ويؤذى محسن وفىّ وصول للعهد أمين فى الصداقة .. ومما يؤيد هذه الرواية أن الشاعر قال بعد ذلك :

تصفحت أحوال الزمان فلم يكن ... إلى غير شاك فى الزمان وصول

فجاء بالجناس بين القافيتين (وَصول ووُصول) وأبو فراس كثير التجنيس فى شعره كمثل قوله :

ولا برقت لى فى اللقاء قواطع ... ولا لمت لى فى الحراب حراب

٣ — روى قوله :

وإذا وجدت مع الصديق شكوته ... سراً إليه وفى المحافل أشكر

وصحة هذا البيت :

وإذا وجدت على الصديق شكوته ... سراً واسكن فى المحافل أشكر

٤ — روى :

أشد عدويك الذى لا تحارب ... وخير خليلك الذى لا تناسب

وصحة الشطر الثانى : وخير خليليك بالتثنية . ٥ - روى قوله :

تردى رداء (الظل) لما لقيته ... كما يتردى بالغبار المناكب

والصحيح كلمة (الذل) مكان الظل ، وهو أوضح وأبلغ وأنفذ للمعنى . يقول : إن حاسده اللئيم الجبان يوغل فى شتمه وانتقامه ويغرق فى ذمه واغتيابه ، حتى إذا لاح له انخلع قلبه وامتقع لونه واعتقل لسانه فتردى رداء الذل ، ولبس ثوب التملق ، فتوسل وتمدح . فلا وجه لكلمة (الظل) إلا إذا أراد الكاتب الفاضل أن يتمحل أوجه البلاغة ويتعسف طرائق البيان . فالمعنى الواضح البين خير وأبلغ من المعنى الغامض المبهم ٦ — وقد افتتح الكاتب الفاضل مقاله ببيت رواه لأبى فراس جاء على هذه الصورة :

تركت أبى طفلا وكان أبي ... من الرجال كريم العود فاخره

وقد نبهت « الرسالة » أن الشطر الأول غير مستقيم لا معنى ولا وزناً ، ولم أعثر على صحته ، ولكن لعل الشطر الأول أن يكون هكذا (وقد فقدت أبى طفلا وكان أبى) ، فيصح النظم ويتسق المعنى

(طرابلس الشام) محمد على عكاوى

لا يغلق بابه فى وجه من به استجار ، وهذا ملجأ حصين ، ستقر به عينك ، وسيهدأ فيه بالك ، ولكن هل لديك ما يمنع أن تطلعنى على ما حدث لك ، ولم ينتظر إجابته بل التفت إلى خادمه الذى لم يزل واقفاً وبيده إبريق الماء وقال له :

— هات له شراباً وطيباً ، فهو فى حاجة إلى ما يهدئ أعصابه ، فذهب الخادم ، وعاد وناول الغريب الشراب فروى ظمأه واستطاع بعدئذ أن يهمس هذه الكلمات :

— أعرنى سمعك أيها الشيخ الكريم ··· وارحم غربتى وضعفى ، فليس لى فى هذا البلد مساعد ولا معين ··· فكن مساعدى ومعينى ··· منذ قليل كنت فى طريق المدينة فقابلنى جماعة من شباب المسلمين ، وكنت وحيداً ، فأخذوا يسخرون منى ويستهزئون بى ، فلما لم أرد عليهم قذفونى بسيل من الشتائم مقذع ، فقطع الشيخ حديثه بقوله :

— ترى من كان هؤلاء الأشقياء ؟ فإن الإسلام يعلمنا كيف نحافظ على شعور الناس ، ويحثنا أن نعاملهم بالحسنى ، ولا نعرض لهم بأذى . فقال الرجل :

— هذا ما حدث يا سيدى ، ولا أدرى له تعليلا ··· فلما استنكرت فعلهم ، ورجوتهم أن يكفوا عن هذا السباب استشاطوا غضباً ، وازدادوا فى إيلامى ، وبلغ ببعضهم أنه أخرج مدية وهم أن يطعننى بها ، فدفعنى حب البقاء أن أدفع الأذى عن نفسى ، فقذفت بسهمى فى ثورة غضبى وشدة هياجى فطاش وأصاب من أحدهم مقتلا ، وها أنذا قد علمت أننى لم أبيت لأحد منهم سوءاً ، ولم أقصد أحداً بضرر ، ولم يكن فى حسابى أن السهم سيصيب منهم مقتلا ··· وقد لذت بالفرار لأنجو بنفسى ، ولأنقذ حياتى من خطأ لم أتعمده ، فرمت بى المقادير إليك ، ولعل من سعد طالعى أنى وقفت لمن ينصر المظلوم ويأخذ بيد الضعيف

ظن الشيخ أن الذى سمعه من الرجل هو الواقع ، فتحركت فى نفسه عوامل الشفقة ، وثارت فى قلبه نوازع الرحمة ، ولم يخطر له ببال أن الدم الذى سفكه ذلك الخائن إنما هو دم ابنه البرىء ، فأخذ يلاطف الرجل ويتبسط معه فى الحديث ، ليذهب ما ألم بقلبه من فزع ورعب ، وما تملكه من اضطراب وخوف ، وكان مما قاله له :

— إنك وإن لم تكن مسلماً ؛ فقد أوصانا نبينا بأن نعامل مخالفينا فى الدين بالحسنى ، وأن نرعى الأخوة فى الإنسانية حق رعايتها ، فكن على يقين أنك بلغت مأمناً ، وأنه بعون الله لا تستطيع يد أن تمتد إليك بسوء ، واعلم أنك الآن فى حماية قوية ، فقد عاهدتك عهداً غير منكوث ، أنى لن أسلمك أبداً ولو حملت فى سبيل ذلك السلاح ··· ولكنه رأى فى وجه الرجل أمارات الشك ، وأن به ميلا إلى عدم التصديق فقال له فى رنة التأكيد :

— كن واثقاً بى فالمسلم إذا عاهد وفّى ، وإذا أؤتمن أدى ، وإذا قال صدق ، فانحنى الغريب حتى بلغ رِجْلَ الشيخ فقبل أطراف أصابعها ، فجذبها الشيخ بقوة وقال له :

— إننى يا بنى لم أنل شيئاً أستحق عليه هذا منك ، ولم أزد على أنى أجرت من استجار بى ، وأى مسلم يقعد عن ذلك ؟ ثم التفت إلى خادمه وقال له :

— اصحبه إلى حجرة النوم التى أعدت للاضياف ، ووفر له وسائل الراحة ، فإنه شديد الحاجة إليها ، ثم ابتسم للرجل وقال له:

— فى رعاية الله وحفظه ، رافقتك السلامة ، وصحبك الهدوء والاطمئنان .

أخذ المدعوون يفدون إلى بيت إدريس زرافات ووحدانا ، تعلو وجوههم نضرة السرور ، وترتسم على شفاههم بسمة الفرح ، وكانت الأنوار تتلألأ ساطعة فى أنحاء البيت وطرقات الحديقة وامتلأ البيت ، واكتظت الحديقة بالحاضرين ، وجلسوا جماعات جماعات ، يتناول حديثهم شتى الأمور فى الأدب والتطورات السياسية ، والمعارك التى يخوض جيش المسلمين غمارها لإخضاع الثائرين المتمردين ، والملح المضحكة ، والطرف المستملحة ، والكل ينتظر عودة إسحاق بفارغ الصبر . وكان الشيخ إدريس أشد الحاضرين قلقاً ، وأكبرهم لهفة ؛ فقد بدأ يتوجس خيفة من تأخر ابنه الذى لم يسبق له مثيل ؛ فإنه لم يتأخر فى المدينة إلى مثل هذا الوقت من الليل ، وخشى أن يكون قد أصابه مكروه ، فإنه يعلم أن عليه فى هذه الليلة أن يستقبل المدعوين فى منزله من علية الناس وأشرافهم . فلم يستطع الرجل الثبات فى مجلسه ، فكان يكثر من الخروج والقيام والقعود ، والذهاب إلى الباب والعودة منه ينتظر عودة وحيده .

وحانت صلاة العشاء ، فقام أحد المدعوين وأذن لها ، وبعد أن فرغوا من صلاتها عادوا إلى أماكنهم ، وقبل أن يتشعب بهم الحديث فاجأهم صراخ وصياح خارج المنزل لم يلبث أن صار بينهم مصدره ، وكان خادم إسحاق الذي رافقه إلى منزل الشيخ عبد الكريم هو مبعث البكاء والصياح فدخل عليهم وقال لسيده إدريس في تأثر بالغ وهو يبكي ، ولا يكاد يتبين السامع شيئاً من كلامه لاختناق صوته ، وإلحافه في البكاء والنشيج :

— ألهمك الله الصبر يا سيدي ... ؛ فقد مات وحيدك ... وسندك إسحاق ...

لم يكد الخادم يتم عبارته حتى ارتسم الهلع على وجوه الحاضرين ، واستبد بهم الحزن ، وفارقهم الوقار ، وتخلت عنهم الشجاعة ، فعلا نشيجهم وتصعدت زفراتهم واستسلموا لحزن عميق

أما الشيخ إدريس فقد كاد يصعق في مكانه ؛ لأن الخبر قد نال منه أشد منال ، ووقع على قلبه وقوع الصاعقة ، وأخيراً بعد جهد جهيد استطاع أن يستند على خادمين ويخرج إلى الحديقة ، يتبعه الأضياف ليروا جثة إسحاق التي وصلت منذ لحظات .

تقدم إدريس إلى ابنه المسجى ، وبيد مرتعشة رفع الغطاء الأبيض ، فرأى وجه ابنه ، ذلك الوجه الذي كان منذ قليل يزخر بماء الشباب ، رآه أصفر شاحباً ، قد ذوى جماله ، وغاضت ملاحته وغارت عيناه . وقد كانتا تشعان بالفرح والتحفز والسرور ، فانطفأ بريقهما ، وخبا ضياؤهما ، وانطبقت جفونهما .

رد الوالد الغطاء على وجه ابنه ، والحزن يفتت كبده ، ويذيب فؤاده ، ولكنه تحامل على نفسه وتمالك أعصابه وردد في ثقة واطمئنان قول الله عز وجل « إن لله وإنا إليه راجعون » . « كل نفس ذائقة الموت » . « فصبر جميل والله المستعان » . ثم التفت إلى القوم الذين جعلوا يتقدمون لتعزيته وقال لهم : ماذا يملك الإنسان غير أن يستسلم للقدر المحتوم ، والقضاء النافذ . إن قلبي يمتلئ بالأسى والحزن لفراق ولدي الوحيد ، ولكنها إرادة الله ، الذي لا راد لما قضاه .

تراءى العالم للشيخ إدريس شديد الظلام ، وأخذ الألم يحز في نفسه ، ولكنه صبر للبلاء ، وصمد للقضاء . وانفرد بالخادم الذي كان يرافق إسحاق وقال له :

— قص عليّ يا بني ما جرى لكما كما وقع ، ولا تستر عني شيئاً من الحقيقة ، وقل من ذا الذي فعل هذا بسيدك إسحاق؟ فقال الخادم:

— أنني قد تأخرت عن سيدي إسحاق قليلا ، لأنه أسرع بجواده ، ورأيته من بعيد يتحدث إلى رجل غريب ، لكني لم أسمع ما دار بينهما ، إلا أنني رأيت سيدي بعد قليل يحاول النزول عن جواده ، وقبل أن يتمكن من ذلك ، قذفه الغريب بسهم قاتل ، فسقط على الأرض مضرجاً بدمائه ، واختفى القاتل بعد أن أدركه ، فانتفض الشيخ انتفاضة شديدة كأنما لدغه عقرب ، وقال والدمع ينهمر من عينيه : هذا ابتلاء من الله وعلينا أن لا نسخط على قضاء قضاه .

وأخذ الحاضرون يعزون الشيخ إدريس ، ويسألون له الصبر ثم ينصرفون إلى بيوتهم والهم يعتلج في قلوبهم والأسى يحز في نفوسهم . ثم اجتمع الأقارب والأصدقاء من الرجال والنساء حول القتيل يبكون شبابه الغض ، وفتوته الناضجة ، وخرج كثير من أصدقائه يفتشون في طرقات المدينة وأحراشها عن القاتل الأثيم !

في الحجرة الأولى عن يمين الداخل إلى المنزل كان اللاجيء المسيحي يرتجف خوفاً وهلعاً ، كلما تعالت أصوات البكاء والعويل ، وتنثال عليه الأفكار السوداء والخواطر المثيرة ، ويقول في نفسه : ماذا أعمل إذا كانت تلك مناحة القتيل وقد زجت بي المقادير إلى بيته؟ ثم يعاوده شيء من الهدوء، ويقول: لو أن الأمر كذلك لدخل عليّ أهله ولمزقوني شر ممزق منذ أن وصل القتيل إلى البيت .

ظلت الأفكار المضطربة تنتاب ذلك اللاجيء شطراً كبيراً من الليل ثم تأكدت مخاوفه وأسرعت خفقات قلبه ، عند ما عالج الشيخ باب حجرته ثم فتح مصراعيه ، ودخل عليه وبيده مصباح مضيء . ثم ابتدر الغريب وقال له :

قل لي بربك يا صاح ! أكان الرجل الذي قتلته منفرداً أم كان في جماعة من أصحابه ؟

— لا لا ! إنه لم يكن وحيداً يا سيدي ، بل كانوا أربعة ، وقد استثاروني فاستعملت السلاح دفاعاً عن نفسي ، ... وإني أستحلفك بالله أن لا تسلمني إليهم فإني بريء ، بريء .

— لا تخش شيئاً فلن أسلمك لأحد ، ولكن هيا اتبعني قليلا .

قام الرجل متثاقلا . وتبعه متعثراً في مشيته وكأن رجليه تعجزان عن حمله وكان كلما تقدم وراء الشيخ خطوة ، اعتقد أنه يقترب من الموت خطوات ، وظل كذلك حتى وصل إلى الحجرة التي نقل القتيل إليها ، فدخلها وراء الشيخ فوجد بجانبه أربعة يرتلون آي الذكر الحكيم ، فتقدم إليهم الشيخ وفتح لهم باباً داخلياً وطلب إليهم أن يلجوه ، وأن ينتظروا ريثما يسترجمهم ،

ثم طلب إلى الغريب أن يتقدم إلى سرير القتيل ثم رفع الغطاء عن وجهه وقال له :

— هل هذا الرجل هو الذى أصابه سهمك ؟

عرف الرجل فى المسجى على السرير ضحيته ، فاصفر وجهه ، وتصبب عرقه ، وجف ريقه ، وتلاشت الكلمات فى حلقه ، والتاث عليه مسلك القول ، فقال له الشيخ فى هوادة ورفق :

— قل الحقيقة ولا تخف يا بنى . فليس عليك من بأس ، فقال الغريب بصوت متقطع كأنه خارج من جوف بئر :

— نـ ... نـ ... نعم هو يا سيدى ، ولكن بحق نبيكم محمد ارحمنى واشفق على ؛ فانى لم أقتله متعمداً ، أنا برىء ، إن هذا الشاب قد ابتدأنى بالشتائم وقد دافعت عن نفسى ...

— لا بأس . لا بأس فلترجع إلى حجرتك ثانياً ؛ فقد بقى من الليل وقت ليس بالقصير ؛ وأنت فى حاجة إلى قسط من الراحة كبير وفى الصباح الباكر إن شاء الله ندبر وسيلة لإنقاذك .

ثم ودع القاتل عند باب حجرته وتمنى له ليلة هانئة . ثم انثنى إلى حجرة القتيل وجلس إلى جواره مع القراء يسترحمون له بتلاوة القرآن . بينما أغلق القاتل عليه بابه واستسلم للتفكير فى مصيره وما سيأتى به الغد من أحداث .

نادى المؤذن لصلاة الفجر ، فقام الشيخ إدريس وجدد وضوءه ، واستقبل القبلة ورفع يديه إلى السماء وقال :

« اللهم لا رادَّ لقضائك ، ولا سخط على بلائك ، ابتليت فرضينا ، وأمرت فأطعنا ، فالهمنا جميل صبرك ، وثبت قلوبنا على طاعتك ، فلا عون إلا بك ، ولا ملجأ إلا إليك ، إنك أرحم الراحمين ، وأعدل الحاكمين » . ثم صلى لربه فى خشوع واستسلام ولما انتهت صلاته ، أمر أحد رجاله أن يعد أسرع جياده ، وينتظر به على باب الحديقة ؛ ومعه إبريق ملء بالماء . ثم أخذ كيساً ووضع به مبلغاً من المال ، وأحضر سلة وشيئاً من طعام وفاكهة ووضعهما فى السلة ، وذهب إلى حيث الخادم ينتظر بالجواد ؛ وأمره أن تأتيه بالضيف من حجرته .

قضى القاتل ليلة ليلاء لم يغمض له جفن ، ولم يهدأ له بال ، ولم يسكن له خاطر ، فما أن طرق الخادم بابه حتى أيقن أن ساعته قد دنت ، وأن حَينه قد حان ، وتلك آخر لحظاته ، فجثا على ركبتيه ، وصلى على طريقته المسيحية صلاة الوداع لحياته ؛ ثم قام وتابع الخادم وهو يترنح كالسكران من هول مايلاقيه . فلما وصل وجد مضيفه وحاميه ممسكا بعنان الفرس ، متكئاً على جدار الحديقة فما أن أبصر محاه حتى صرف الخادم ثم وجه الكلام إلى القاتل فقال :

— أيها الشقى التعس ! ألا فاعلم أن الذى استقر سهمك فى صدره هو ابنى ووحيدى وأنه لم يكن متجنياً عليك ، ولم يبتدرك بإساءة ! ! إنك لا تستطيع أن تتخيل أى دور لعبت فى تدميرى ، وتحطيم قلبى أنا ذلك الشيخ الفانى ، لقد هدمت بنيانى ، وقوضت أركانى ، وقتلت كبدى . إن الصراع الناشب فى نفسى ، لا يقدر قدره ولا يبلغ مداه ... هذا وحيدى وسندى فى الحياة جثة هامدة بين عينىّ ، تنادينى روحه من عليائها أن أنتقم له ، وهذا قاتله بين يدى ، وفى حوزتى ، ولكن يمنعنى من الثأر منه ذلك العهد الذى قطعته على نفسى أن أحميه ... كان إسحاق رطيب الغصن ، ناضج الشباب وكنا نبنى عليه صروح الآمال ونعلق عليه كل رجاء لنا فى الحياة ، ولكنك هدمت صروحنا وقطعت رجاءنا .. إن الدم يغلى فى عروق غضباً عليك ، وإن نوازع الشر تصرخ بى أن أثأر منك ، لكن صوت الضمير يملأ نفسى ، ويغمر قلبى ، إنى عاهدتك باسم الله وبمكانة محمد نبيه ، أن أحميك من كل شر ، وأن أدفع عنك كل سوء ، وقد استجبت أخيراً لنداء ضميرى ، فانى لا أحب أن يقال : إن مسلماً استهان باسم الله وبكرامة محمد نبيه ، فأخلف وعده ، وغدر فى عهده ولوث سمعة المسلمين .. هاك خير جيادى ، وهذه سلة فيها طعام وفاكهة ، وذى نقود قد تحتاجها فى سفرك . وإن إسحاق كان أحب إلىَّ من حياتى ، ولكنى عفوت عنك « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » وتعاليم الإسلام أحب إلى قلبى ، حتى من نفسى ...

وهبى إسماعيل حقى

مطبعة الرسالة